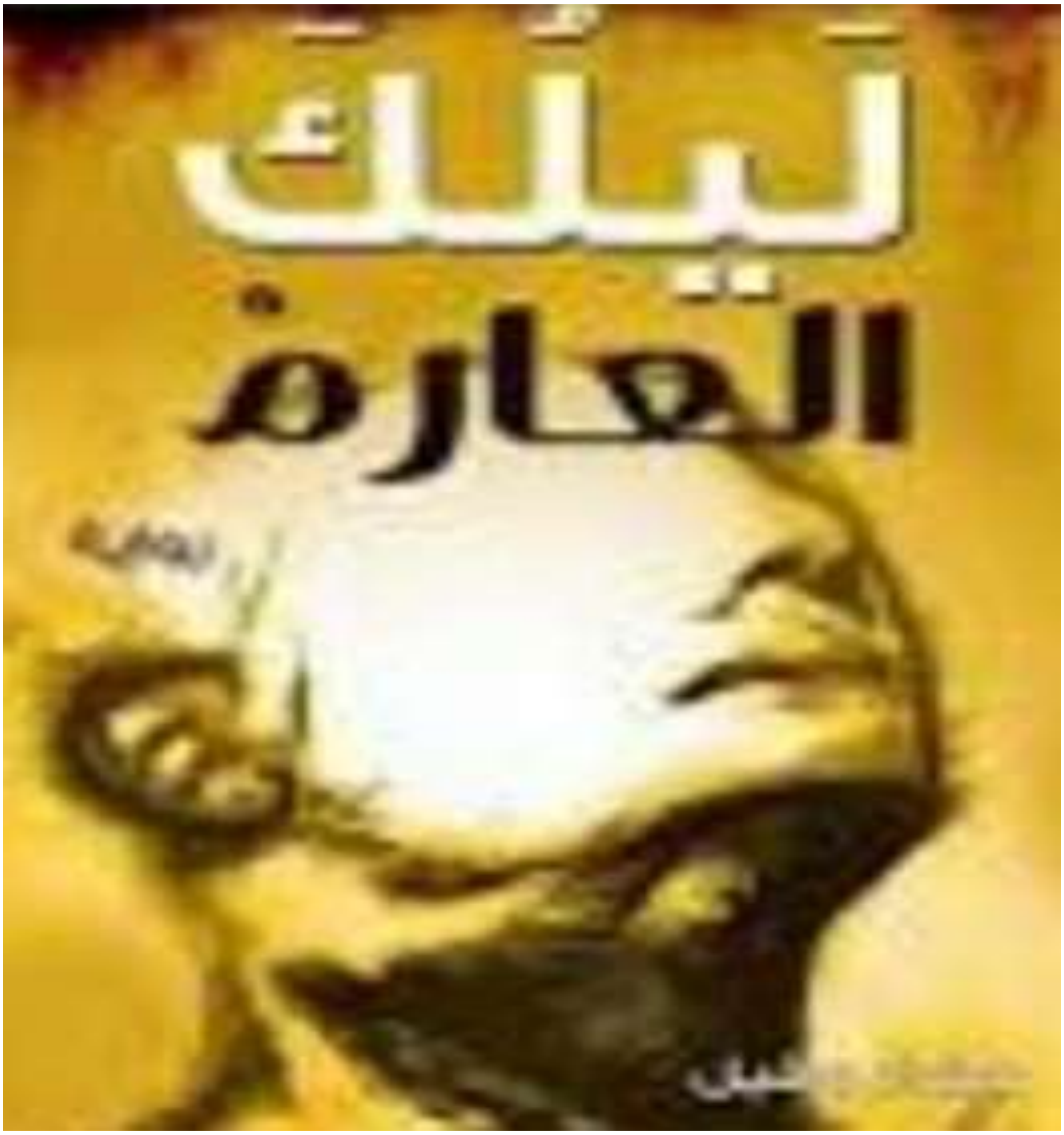

لَيْلُكَ العارِمِ

رواية

جهادعقيل

الإهداء :

إلى خالدة

"هناك ألف سنة في جيبي

ترفض أن تؤرخ ، لكن لا أحد يراني

إلا إذا أغمض عينيه ونام "

سركون بولص (الوصول إلى مدينة أين)

" ذلك أن السير في مهب الرياح لا يكون إلا على انفراد"

آغوتا كريستوف (أمس)

.... و أنت تستنشق الأبد

فصل البياض

ستعترف في البداية أن لصخور المنطقة من الهيبة والسواد ما يطبق على النفس ويجول بك في براري الكمد .. رويداً و أنت تدخل مفازاتها، و بعد أن يغرب أفق السماء عنك ستستشعر وخزاً ناعماً في شرايينك : العطش ... لابد أنه العطش ، ستسلي نفسك باستنتاجات من هذا النوع و أنت تعلم انك غارق في سواد صخري عظيم أرتج مداه الفاحم عليك وفاق كل توقعاتك ، و على مهل ستبدأ روحك بالانجراف نحو صلابتها و أنت تدنو من أجرانها التي احتفظت ببعض الماء لتجرع من الليونة ، ستحس أنك ترضع من حليبها و ستسخر من ذلك وتردد كامل العبارة : ترضع من حليب الصخر ، لكن شيئاً من رعونة النار يعبر نحو صدرك و أنت تتنفس ريح الفلاة ، أي فلاة ؟ " هذه معسكرات الجن .... خِيَمُ الشياطين" .

تقذف بعض الحصى بمُقدم حذاءك و تمضي بك الخطوات في ممر أغلق دونك ، كتلة عارمة من الصخر تسد عليك الهواء ، تعود أدراجك، الآن ترى إلى الشمس و ترى إليك ، قابعة في قبة السماء ، و أنت تستشعر طاقتها الهائلة لدرجة أنك خفت أن تصهر موائد الصخور التي تحيط بك من كل الجهات ، تلتمس ظلاً يقيك الهاجرة، تفلت الجهات منك ، تتكسر خطواتك ، تنخسف ، تحبو نحو الظل ، تزحف حتى يصل رأسك خيط السواد فتشاركَ اللهاث سحلية قابعة هناك تتلوى و كأنها تفسح لك ، تطلق سراح بصرك فيعود عليك بالأسود .. تعرف الآن أن لكَ جهة واحدة هي جهة السماء ، ترى إلى الاندفاعات التي تشكل مسارب بين عتاة الصخر و تضحك ؛ في أي واحدة تَدْرُبُ الآن ؟ تفكر ؛ لك رغبة بعبور هذا الجلف حتى لو لم تطاوعك عيناك... لو تلمست الوصول حجراً حجراً ، و رأيت نفسك وأنت تطاول اللحظات

في العلو و رأيت كم أن العلو يعفيك من الدوران في ارض تائهة أكثر منك و صرت نجمة للحظات بينما يغلّك اللهاث و تضحك .. تضحك الآن بصوت عالٍ ... خلتها نجوم الظهر لكنها أخذتك إلى النجوم فهجعت تنتظر الليل ، و حدست أن للّيل نافذة وحيدة منها يمكنك الوصول إلى الجهات ... غفوت أم أن اليقظة ولجت ثيابك فمسّت جلدك كيدٍ باردة ، ساعتها راق لك البكاء وأنت تراكم العتم دون هداية ... وعبرت قيظ النهار وأنت على هذه الحال ورأيت إلى النجوم وهي تتمطى متثاقلة بالضوء وقادتك لجهة الجنوب ، لم تبك بل أرغت فكرة أن تشعل نارا تمنح مسامات جلدك بعض الدفء ، لم تفعل لأنك ستقودهم إليك ، و ضحكت مرة أخرى و فكرت ؛ أتكون الحقائق مضحكة إلى هذا الحد ؟! أضحكتك بلاهتك ؟ أليس من الأفضل أن يعثروا عليك و جسدك يختبر التيه في غابة من جلاميد البازلت ؟.

"أسموها (اللجاة)" و راح عقلك ينقب في اوقيانوس الكلمات التي راحت تتساقط خلف خطواتك المتطرفة ..... "ربما من لجأ أي من الملجأ أو ربما من لجّة ، من الأحمق الذي يغامر بتسمية غابة من صخر بلجّة على غرار الماء ؟" و لمَ لا ؟ قلت لنفسك :" ألا يطبق البحر على الأنفاس مثل هذا الليل ... ليل هو الصخر .... أسود هو الليل ... و هذه اللجاة ليل في نهار و ليل في ليل ،كان الأجدى أن يسمّوها الليل... "

لم تعرف ساعتها أن حواراتك المجنونة كانت تقي عقلك أبواغ العفن و رحت تتسلق الصخر حتى وصلت إلى أعلى و رأيت دبب النجوم و هي تأخذك نحو وضوح وجهتك و جثا قلبك لفكرة أن الصخور اشتعلت الآن

و أن دخانها هو الذي امتد نحو الغيوم .... أم أن الغيوم تدانت نحو النار كما تفعل أنت الآن .

حامت الأفكار في رأسك يمكن أن تدهمهم على عجلة ستدنو منهم ثم تصعد الصخور ، تزحف ببطء و ترى عددهم ستقفز إلى الأول تجندله ، تمسك سلاحه و تخلّص على الاثنين ..... أوغل فيك نباح الكلاب الذي تعالى و رأيت نفسك و أنت تطرق جهة الغرب حتى تجتازهم ، خانتك علومك في ليلك البهيمي و ضحكت على نفسك مرات و مرات و أنت تعيد السيناريو الذي أعددت للقضاء عليهم و لم تجب على السؤال الذي تدحرج بين رجليك عن العدد الذي اخترته لهم : لماذا ثلاثة ؟ رحت تسامر نفسك و راجعت الفضائل الهائلة لعدد كهذا حتى تراخى النباح و صرت تجهد حتى يتلفّظ المدى بعضاً من صداه ، أوغلت في الغرب مديداً ، آن لك أن تقصف المسافة ثم تعاود طرق أبواب الجنوب و لم لا و قد اختبرت وجود الإنس في هذه القاع . فوجودهم يعني ما يعني طائر قطرس لبحار أطبق عليه لج البحر و رأيت نفسك قريبا .. ساعتها خذلتك النجوم إذ أطبقت عليك غيوم باردة راحت تزفر لعابها فوق صخورك التي باتت زلقة يعزُّ تسلّقها ، و رأيت إلى حذائك و أنت تحاول ذلك فسحبك التعب إليه ، انتبجت أصابع قدميك و تورمت ساقاك و عوت معدتك ، أردت أن تهبط من علو الجسد أن تلتصق بالأرض ، فكرت بفضائل الزحف الحيواني ؛ ألم يكن من الأفضل لو أن هامتك الآن اقرب إلى القاع ؟ تطبق جفنيك على صباح لم يأت بعد ، و تتنسم رائحة الأرض المغسولة بالطل و قلت لنفسك : أقطع شرايين النهار في وكر ثم أعاود السير مع أول الليل لكن غلس الساعات قبيل الفجر جعلك لا ترى أصابع يديك ، اقتعدت الأرض ... أرخيت نفسك و أسدلت كتفيك على

صخر تَلَمَّسْتُهُ يداك ، لحظتها ضَبَحت بنات آوى على البعد و شعرت بالخوف و هو يدب في رجليك صاعدا نحو رأسك، و أنت لا تملك عصاً لتدفع بها عن نفسك و رحت تعيد تفاصيل يومك السابق ، فرّت المشاهد المتتابعة كالعصافير و فكرت ثانية بالثلاثة الذين كنت تنوي مهاجمتهم بماذا كنت ستهاجمهم و أدركت ساعتها أن عقلك لم يكن يعمل كما يجب ، أدركت ذلك و أنت تحكّ قفا رأسك بالصخر و تمضي إلى النوم .

دهمك الضوء ، انسكبت أشعة الشمس في عينيك دفعة واحدة ، غسلتَ وجهك بها و فكّرت لحظتها بالوقت . سيكون من الأفضل لك أن تتخلى عن الزمان ... أن تمضي خارج دورانه و إلا سُحلت تحت عجلاته. وكنت بحاجة للشمس ليقطع سمتها المكان الذي صار فيك و صرت تلملم ملامحه في أفق يتقدم طريق الوعر الذي اخترت. و رأيت بلدا هناك تذيب جلافة صخوره الطحالب التي أحالتها إلى الأخضر ، لدغك الصحو و رأيت أن تتعامد مع شروق الشمس و تكمل نحو الجنوب ، ما زال بإمكانك تلمس دربك بين الشعاب و مضيت بعد أن استحال الجنوب حلا لكل ما تكابد روحك من آلام .

كنت تعبر بإصبعك على أسماء الناجحين في امتحانات (الشهادة الثانوية) حتى التصقت سبابتك باسمك و جريت بها جانباً لتكمل فرحتك بالعلامات المدوية التي حصلت عليها ، لم يكن الخيار لك عندما اقتادك أصدقاؤك نحو سهرة أعدوها لك ، ستدهم سيركم (هالة) سترسل يدها نحو يدك و تحس لأول مرة بأنك تريد أن تخرج من ثيابك ، بقيت كذلك حتى التهمها طريق جانبي ، لم تتفوه سوى ببضع كلمات : مبروك .... قالت

ثم أضافت وهي تنثر نظرتها نحو رفاقك : مبروك شباب . وكنت تعي بأنها خصّتك بلمسة يدها على الرغم من أنكم في نفس الصف ، لم تأخذ من عينيها كثيرا لكنها أخذتك من بين رفاقك طوال الوقت و طوال الوقت كنت تحدق في عينيها اللتين أطلتا من غيم شرودك ، كنت تقول : يا الله البكالوريا و هالة بنفس الوقت ؟ ساعتها لم تعرف أنهم كانوا يقتعدون أركان البيت في الداخل و الخارج جميعهم كانوا بانتظارك ، لم يتبادر لذهنك أي سوء كنت تعلم أنَّ والدك لن يدع نجاحك يمر هكذا لكنك – حينها لم تعرف كيف أصبحت بينهم- وجدت نفسك واقفا تضم راحتي يديك فوق بعضهما تتلقى صهارة كلمات العزاء فوق رأسك .

داهمك الشعور بأنك واقف على الحافة تطل على هاوية الفقد و انزلقت رجلك فشهقت قلت : الحمد لله و عاجلك السقوط، لم تبك .. لم تنزلق من عينك قطرة واحدة كنت تسقط و تعلمت ألّا تثق إلا بالصخر، أليست الأرض نفسها التي تلعنها الآن ؟ و ترنو للخلاص منها لأن بقاءك يعني النهاية . أنت ذا تستفيق ، كفك تقبض على حفنة تراب ، تفركه بين أصابعك تفرك قدرك و أنت تزيح الكفن عن وجه والدك الأخير و تعفر جبينه بتراب الموت .

أبوك الآن ينهض بين أصابعك يتناثر ذرّات تمتزج بروح الصخر الذي علقت فيه...عليك أن تتعلم أن للدنيا أوجاعاً كثيرةً . ها ظلك لم يعد يحاذيك ، تعرف أن الشمس الآن تعلوك ، يجذبك الوكر ، لم تبذل كثير عناء حتى تجده ، تخلع حذاءك العسكري ، يهدهدك الفيء والبرودة الناعمة و أنت تتكور الآن في رحم الصخر ، ها جسدك الآخر يستلقي إلى جانبك مرهقاً هو كذلك من الجري خلفك ، كل شيء يعبر الآن نحو الصمت ، قلبك وحده الكائن اللين وسط هذه الشعاب لا يني يصدر

صوتاً .. صار الهواء قاسياً و صرت تصغي إلى صوت تنفسك .. كأنك الصخر ينبض بالأنين و كنت ساعتها هناك مفجوعاً بلطم أمك، بولولتها أكثر من الجرح الذي خلفه الموت رافضاً أي اندمال ، كنت تدرك أنها لم تعد تلطم على أبيك بقدر ما تفعل على سوء حالها ، أعيتها حيلتها فلم تجد حلا ترمم به فراغ حياتها الرازحة تحت ثقل الموت ، غمرت يديها بيديك ، قبلتهما ثم قلت لها وأنت تسدل ستارة ابتسامة وادعة أمام طاقة الهم التي انبعثت خلفك :

" وَلَوْ ما أني هونْ "

جميعهم كانوا يعلمون حينها أنك كنت هناك ، لكنهم لم يلحظوا أنك غادرتهم منذ وقت طويل و بقي شبحك بينهم يواتر الكلمات التي لا تشير إلاّ إليك.

لقد قرّ قرارك بالمضي إلى الجيش ، يمكن أن تكمل دراستك في الكلية الحربية في الوقت الذي تتقاضى فيه راتباً يقيك العوز و يسرّي عن أمك قليلا إذ يمكن أن تساعدها على شد إزار زيدون الذي يصغرك بسبعة أعوام و كنت تنتظر قدومه عند بوابة الدار و ترنو إليه وهو يعدو نحوك . تسيل أوجاعك الآن من فمك ، تمسح لعاب نومك بظاهر كفك ، ليس لديك الآن من ضوء سوى نور قلبك يفتح أبواب الصخر التي أوصدت دونك و وجدت نفسك تائها للمرة الأولى مذ غار الطريق الذي يصل العاصمة بـ (وجه الحجر) .

تحاول السير فتمزقك الجهات و تهيم لجهة دون غيرها فتقف في وجهك مغاليق الكتل العالية. راق لك البكاء مرة أخرى .. لكنك لم تفعل و رأيت نفسك مفتوناً بنهايتك ، عندما مر سرب من طائرات حربية يحلّق

منخفضاً و سمعت رنين الصخر ساعتها ، أخيّل إليك ذلك أم أن حديد عروقه قد أطلق صريفاً غامضاً انتهى إلى أذنيك ؟ وأنت تعرف أن رياح الشرق تهب في مثل هذا الوقت و هواء الشرق وجد طريقه إليك مضفراً بكرات تائهة من الشوك و محملاً بغبار حارق قادم من صحراء العرب ، نسيت نفسك هناك و آنت تمضي باتجاه الجنوب مرة أخرى نحو زيدون الذي ينتظرك خلف أشباح الصخر هذه و رأيت إليه و هو يكبر كان يرى فيك مثلا ، يرنو إليك وأنت تخطو نحوه في موقف الباص بكامل قيافتك العسكرية مع النجوم التي بدأت تتزاحم على كتفيك ، تبتسم لوجهه الذي تحب ، تفكر مليا ، لم ينمُ بينكما طيلة هذه السنوات سوى عشب الانتظار ، تنفر غزلان ذاكرتك مرة أخرى ... تقفز كأنها في سهل اجرد ، آنذاك أرسلوك إلى كلية المدفعية ، يومها لم يعن لك كثيرا أن تكون في البر أو البحر أو الجو فقط كنت تريد ألا تمضي دراستك نحو العدم ، ولأن دموع والدتك لم تكن لتفارق مخيلتك أبداً . والتقطتْ (حلب) ضراوة أنفاسك وأنت تدرج في شوارعها للمرة الأولى و ارتوى جسدك بلسع برودتها منذ لقائكما الأول و شعرت بها تخترق عظامك لأنك سافرت إليها ليلاً وكان عليك انتظار بزوغ دفء الشمس و أنت تمضي في شوارعها المبللة ، نزلت في دوار (الراموسة) و منه انتظرت حتى قادك الجنود إلى الكلية و هناك التقيت مدافع الهاوتزر لأول مرة و أفواهها تغامر نحو سماء بالكاد تختبرها ، لم تعجبك (حلب) لحظة لقائكما الأول ربما لأنها كانت مشغولة بنفسها أكثر من أي شيء في العالم ، لكنك فيما بعد وبعد أن يقضمك الحنين إلى الكتب المتراكمة في ساحة (سعد الله الجابري) .. لهواء العصافير في الحديقة العامة .. لدور السينما .. لروائح الطبخ في باب الفرج ... لزحمة الناس في أسواقها العتيقة .. لأدراج قلعتها وللوقت

الحميم الذي كنت تقضيه أيام العطل أمام لوحات لؤي كيالي في متحفها .. لأصدقائك في السليمانية ، وبعد أن تكتشف طيب أهلها وميلهم الفطري لتقديم يد العون ستفرد لها مكاناً غامضاً في ثنايا روحك ، سترافقك مسيرة حياتك وتتمنى دائما الانتقال إليها لتطويك في ثناياها كما فعلت أنت بها .

ها أنت تفيق على جسد ليس لك وروح تهاجر نحو سماء جديدة. و أردت أن ترتاح .. فقط ترتاح من لسع الحنين إلى هواء آخر .

يأسرك التعب لقاع محيطك الصلب ، ترتهن ركبتاك إلى الأرض و تدور بك الدوائر و يبدأ الكون بالدوران ، يخيّل إليك وأنت تغمض عينيك بأنك تغرق في لجة سوداء فتروح تصيح : يا الله .. يا الله

ربما رأيت الله ساعتها و هو يستخرج صهارة روحه من باطن الأرض ليصبها في هذه المعامي ، جرداء ... سوداء غير قابلة للكسر ، جففوا ينابيعها و طمروا آبارها و قصفوها بطائراتهم فلم يرف لها جفن ، و تريد أنت الآن بهذا الجسد الفاني أن تهزمها ، صرت تحس بأن لك عقلاً ناقصاً و أن قرارك بقطع امتدادها الذي يجتاز السبعين كيلو متراً لهو ضرب من الخبل . تغرس عينيك في شقوق الصخر فتراها هناك (بصوي) نبات تتكمش جذوره في أقسى أرض ، ما برحتَ تجزها وتقشّر ما يغلّف سيقانها الناتئة نحو الهواء ، تمضغ إحداها تلوكها تنقّلها في محيط فمك ريثما تجهز الأخرى و ما أن سال ماؤها في فمك حتى أطفأ ظمأك وأخذك لمسيرات التدريب في القوات الخاصة عندما أفرزوك لدورة (الصاعقة) ساعة كانت أجسادكم تتلوى صعوداً للتلال تطل على (دمشق) من الشمال وانتم تنحدرون نحو (عين الراهب)

أكلت نفس النباتات هناك و جرى على لسانك نفس المذاق الحلو قلت لنفسك :

النباتات توحد الأرض ونحن نصنع الفوارق ، تأملت في أسماء النباتات التي تتغير من مدينة إلى أخرى من بلد إلى آخر أما هي فخضرتها واضحة ومذاقها واضح مهما تغيرت أسماؤها ، يومها ضحكت كثيراً مع رفاقك حول التسميات التي كنت تطلقها على العشب ، تسترسل في الأكل و أنت تقصف السيقان الناعمة وتخبئها في الجيوب الجانبية لبنطالك ، اكتشفت للتو الزاد الذي سيرافق مسيرتك متزامنا مع الألم الذي حلّ في ركبتك اليسرى لترصد بقعة الدم التي تفشّت على القماش العسكري ، الآن لن تقوى على حث خطاك و أنت تمضي في ممر مغلق لتعود ثانية من حيث بدأت ، ها أنت تبحر بعيداً مرة أخرى ، أبصرت إلى هالة إلى حديث قلبك الذي جف تحت سقف الجندية .... مات قلبك هناك ، تركته على أبراج التدريب التي تصاعدتم إليها ثم مشيكم على الحبال في الهواء و انزلاقكم في برك الطين ، تركته في حفر العقوبات و تطعيم المعارك التي خضت زاحفاً بين جثث الكلاب النافقة والرصاصات التي خبرت تدفقها فوق رأسك .. لحظتها كرهت الجيش كرهت البلاد وأكثر ما كرهت هو التحاق زيدون بك هو الآخر .. عقلك يشير إلى كونك السبب في ذلك و كنت تمضي بعض الليل بعد أن تعد سريرك للنوم في التفكير في ذلك : ما الذنب الذي يقترفه المرء عندما يتشبه به أحدهم ؟

إلا أنك وأنت تتسلق حبال (الحوامة) أثناء تدريباتكم القاسية على الإنزالات الجوية فكرت بغير ذلك وعندما صرت في الجو تحوم فوق الجبال و الأشجار و الضياع كنت تطيل النظر إلى البيوت .. إلى حركة

الناس في شوارع المدينة ثم وجدت نفسك تحبها و تهفو للذوبان في زحامها. قلت (لهالة) عندما دهمك سؤالها عن مصير علاقتكما :

ـ الله يبعثلك ابن الحلال ..

كنت تعصر ما تبقى في قلبك من وجد وتدلقه فوق أرض جافة فتصغي إلى نشيش عطشها .. يومها ظننت أنها أرادت ذلك حقا ، لكنك عندما تتذكر الفراغ الذي خلفته كلماتك على وجهها لا يأسرك إلا البكاء ، لم تنبس ، تملّتك طويلا .. ذهبت في عينيك الواسعتين سبحت في شعرك القصير يومها لم يكن لك شاربان يغيران ملامح وجهك ثم أزاحت كرسيها إلى الخلف و مدت يدها فوق الطاولة تتلقى ارتجاف يدك ، شدّت أصابعك بحرارة ، لم تبتسم ، لم تبك كما توقعت .. فقط أدارت وجهها .. خلّفتك وراءها و حثّت خطواتها نحو باب الخروج ، وبقيت وحدك هناك تطلق ناظريك عبر زجاج المطعم في جفنات العنب الممددة على سفح الغروب ، لم يرق لك الطعام المسفوح على الطاولة ، تناولت كاس العرق ورحت تكرع بصمت أمام الأشجار التي يداعبها هواء أيلول .

أنت الآن أكثر حاجة للقليل من الماء ، تغسل جرح ركبتك ، تضمده ثم توالي ، أرعبتك فكرة أن يثنيك جزء منك عن المسير ، ليس جوعك وعطشك فحسب بل الجغرافيا ، بوار البازلت الذي صار جزءاً منك أيضا ...

كل أشيائك تهفو للجنوب ، ترتقي الآن فوق الطّف المتصلب ، ترى المدى مفتوحاً أمامك أسود موشى ببقع تميل إلى بني ، تجرّ رجلك اليسرى ، تسحبها رغما عنها فتصرخ آلامك دفعة واحدة ، يبعثرك

الأنين مع كل خطوة ، الصخور استوت أمامك ، تضاءلت سماكتها و كأنها تدنو من فلاحة ، خطوتك أم صوتك ذاك الذي يمزق صمت البرية؟ تتبعثر أرياش ناعمة لعصافير هاربة في مداك فلا يخطر لك أن تنظر إلى العلو الموشى بجوارح تفرد أجنحتها و تواصل تحليقها الدائري فوق سمائك العارية إلا عندما تواتر ألمك و تواترت صرخاتك و لم تعِ كيف انفلتت الأحرف من بين أسنانك (زيدون) الآن تعي أنك تحبه أكثر .

و أنت تهبط وهدة قاسية لاح لك اليأس ، سرابه دافئ أكثر من أي دفء ، صفرت فيك الريح و داخلك النواح كالقصب ، انعطفت على روحك انثنيت إلى الأمام فاستقبلك الصخر ثم لحقتك قدمك اليسرى فركبتك المتورمة ، صرت على ركبة ونصف عندما ظهر أمامك يكزّ على أسنانه مزمجراً ككلب لأنك حينها صدقت بأنك عبرت نحو عالم آخر فما تراه ليس إلا حارس الجحيم ، دون حراك كنت تتملى وبره الأسود يميل إلى الرماد ربما لشدة اتساخه ثم إلى عينيه إحداهما حارة كجمرة والأخرى تقطعها خطوط الغضب في اللحظات التي انتبه فيها لزحف يديك نحو حجر بازلتي طائش كنت ترى الأصفر الذي تراكم أسفل أنيابه واللعاب الذي بدأ يتطاير في وجهك مصحوبا بنباح حاد ، دهمك صوت آدمي خلفك إلى اليمين أم إلى اليسار لم تع و كنت تصغي إلى وقع الأقدام الذي تناهى إليك في صمت الظهيرة ، انحسر الكلب عنك و قبل أن ترى العينين العامرتين بكحل البداوة و الظلال الحمراء للشماغ الذي يهب إليك كنت تسير في ممالك اللاوعي محمولاً على كفين قبل أن يتهدم جسدك نحو سخونة البازلت .

ها أنت تفيق على أفق أسود ، يدهم وعيك (بلاس الشَعر) الذي صار خيمة تحجز عنك سماء زرقاء و تستبدلها بشعر الماعز الموشى

بخطوط بيضاء ،ترى إلى السواد وهو يحاصرك الآن و أنت ترقد فوق فراش صوفي تتحسس حوافه بأطراف أصابعك ، تفتح عينيك على نهار يشد إليك رائحة البداوة ، بقايا الدخان العالق في الوسائد المتناثرة واللحاف الذي يأسرك إليه ، (الشنينة) إلى جانبك ـ العالم الأبيض الوحيد ـ يرتهن إلى طاس من معدن ما ، أنفاسك تتلاحق ، تغمر وجهك باللحاف ها أنت تنتحب وحيدا ، تكويك نار حزينة ... نجوت .. وصلت إلى قناعة تشبه الوخز الذي تطلقه ركبتك الجريحة الآن ، تدنو منها بأصابع يدك اليسرى تتحسس الورم الذي يتراجع أمام تماثلها للشفاء.

تثغو بضعة أغنام على القرب وتقرقر دجاجات و يصيح ديك عندما يقف بقامتة الفارعة على باب الخيمة ، يلبث قليلا، يغمره نور الخارج فتزوغ ملامحه وتميل إلى ظل رمادي ثم ينهمر نحو الداخل ، ينزل إليك يحبو نحوك كي لا يدوس بنعله الأرض المفروشة "الحمد لله على السلامة " يتمتم ثم ترتفع له تتلقاك الوسائد الخشنة يستقيم جذعك تحاول أن تشكره، يندفع إليك يومئ بيده يريد إسكاتك تذهب إلى عينيه ـ ترى الكحل الذي سبق أن رأيت ـ فيهما ما يشير إلى حنو أكثر مما يشير إلى غضب تنبسط أساريرك تحدوك رغبه بعناق هذا الرجل ، فيما بعد ستعلم انه ألقى بك على دابته وسار أكثر من ثلاث كيلومترات ليصل بك بيته المرتهن إلى الوعر على مقربة من(السامية) سيعي ما أنت فيه دون أن ينبت في فمه عشب الكلمات ، ليلة ويوم كنت قد عبرت فيهما ظلال الموت بعد أن أحدثت فوضى في حياة الرجل إذ لزم إلى جانبك تاركا رعي أغنامه إلى (مَسلّمْ) ولده البكر ريثما يهيئ لك إقامة ترسم طريق نجاتك ، أخبرك إن البقاء لديه يحفّه خطر عظيم لأن دوريات (الشرطة) تجوب النواحي بين يومين إلى ثلاثة وفهمت منه على الرغم من الرعب الذي تقطر من جبينك بأنه هيأ لك رأيا آخر ، سيعيدك إلى

جوف الصخر فقد عمّرَ مغارة (الجوف) كما كان يسميها ، ستكون مأسورا لحلكة جدرانها حتى تمتثل إلى الشفاء ويكون بمقدورك المضي أين تريد

- مَسلّمْ ياجيك

أقفل باب الكلام بينما تحاول أن تدهمه ببيان لسانك إلا أنه سكب راحة يده في وجهك مرة أخرى و حاول جسدك المضي امتثالا لأوامره إلا انه أقعدك

- لحين الغروب والله يستر بعد .

و رجعت تفكر حينها في إصراره على إسكاتك أهو نوع من العادة في إكرام الضيف ؟ أم أنه لم يشأ أن يصغي إلى مخاوفه مجسدة في الكلمات التي حاولت فك إسارها .

و مثلما يحل الربيع هلت امرأة عجوز اجتازت مدخل الخيمة و قبعت واضحة في الظل تخترق جسدها آلاف من بقع الضوء تنفد من نسيج الشعر ، فرد يده نحوها

- أم ثليج .... الوالدة

دنت منك ريثما يكشف عن رجلك المصابة ، بأصابعها الفائقة النعومة جسّت فوق الورم أزالت عنه لفافة بيضاء و بدلتها بأخرى و لم تحتفِ عيناك بشيء من يديها ، كنت تريد التمعن في هذه الطلاوة فقط ، لكنهما سرحتا في تغضنات وجهها ، في عمق عينيها و لذت بالفرار ساعتها لأنك كنت ترزح تحت حلم ثقيل ... و كأنها فهمت لغةَ صمتك و عينيك اللتين زاغتا عنها لبرهة قالت :

ـ يا وليدي نهاركْ ما هوْ طويل

لحظتها دهمت أنفك كل الروائح التي اختزنتها في ثوبها الرمادي و ذهبت بك إلى سعال خفيف ، ما كنت تعلم ما الذي أطبق على صدرك رائحة ثوبها أمْ بخار كلماتها ، في عمقك كنت تقلّب كلماتها ، عندما أَمسَكتْ بطاس (الشنينة) ودَفَعتْ بياضه نحو يديك ، كنت تفكر في الثلج ، في امتداده في عالمك و في بلوراته المتجمدة هناك في جبال القلمون بينما تتسلقون كالماعز في مسيرات الجيش كنت تستلذ بالبلورات و هي تذوب في فمك و أغمضت عينيك على ريح قادمة من هناك ، أرسلوكم إلى منحدرات الجبال حتى غمركم التيه كان عليكم أن تسفحوا نهاركم وأنتم تقلبون الجهات حتى يحين موعد لقائكم المقرر في السادسة مساءً مخترقين بساتين التفاح للشمال من (عين الراهب) ، بدا لك العالم صغيرا يومها و أنت تتنسم هواء الجبال و سألت نفسك دون أن يتسنى لك الوقت للإجابة : كيف يتوه المرء في عالم صغير؟

حين اقتربتم من الضيعة كانت الشمس قد جازت منتصف النهار و اكتسحت وجوهكم المجللة بالغبار و ثيابكم الملطخة بالأوساخ ، الممزقة في بعض نواحيها عيون الأهالي ، لم يفسحوا لكم الطريق خوفا بل تحنانا وأنتم أبناء البلد ، كان الجوع ينهب صبركم فامتد بكم في الأزقة تبتاعون بالنقود القليلة التي معكم ما يشد أزركم ، ثمة مخبز صغير لا يزال يحفل بطابور المشترين لم تصدق عندها كيف أفسحوا لكم دربا إلى شباك البيع ، اشتريتم الخبز و درجتم نحو الجبال بانتظار موعدكم المقرر ، يومها توطّن في صدرك فرح غامر، لم تدرك معنى حقيقيا له، لكنك حدست بأن مصدره الناس ، لم تزجّك في الغضب نظراتهم الحانية ممزوجة بالشفقة في كثير الأحيان بل بشعور بالحب لم تختبره سابقا .

انتصبت الجبال باسقة أمامك ، هبت نسمات خفيفة لينة وناعمة حملت إليك عبقاً غمر صدرك بالنشوة ، و مضيتم .. عبرتم قرى لم تسمع بأسمائها من قبل .

مرة أخرى تستحيل سماؤك سوداء و أنت تستيقظ في (الجوف) يحتويك الصخر مسنناً كأوراق مقوّاة مطلية بالأسود طبعا ، طبقة إثر طبقة ذات لمعان بارد ، لم تلسع أذنيك أصوات العصافير فحدست أنك داخل الليل ؛ ليل في ليل قلت لنفسك .

يلج (مسَلّمْ) باب الجوف يلوي قامته لسواد البازلت يحفّ الأرض بخُفّهِ ثم يقف أمامك فارعا بجلباب لا يبدو مناسبا لقامته يمضغ شرخ شوفان بري يرسل إليك ملامح وجهه عبر ضوء شحيح ، يبدو لك أكبر من سِنّهِ و هو يقلب عينيه في المكان كأنه يراه للمرة الأولى على الرغم من أنه من هيأ لك حصيرةً و فِراشاً و لحافاً و ألحقها بقنديل و بعض ماء عندما قاد الدابة التي تحملك تحت سقف الظلام ليودعك آمناً بين إضلاع الصخر .

ترى لنفسك الآن مدفوناً بغلس البازلت بعيداً عن العالم و تفكر أن العالم واسع و بعيد ثم تُواتِرُ على لسانك لغة سماوية ربما تنجح في طرد الخوف الذي ربط جسدك بالفراش ، يدنو مسَلّمْ يجلس حذائك ، يفرد قطعة من قماش ثم يردف عليها زاداً من لبن رائب و شيئاً من برغل مطبوخ , أضعت شهيتك و أنت تفكر؛ السواد الذي أطبق على روحك و ألقاك في الكمد. مسَلّمْ بدأ بأنّة متصلة ، ثم قال وهو يتلفّت حوله :

- "أويلي"

و كأنه كان يستجير بك و هو ابن هذا الفضاء، يتلقف منك نبضاً ينأى به عن الخوف... ترتفق الجدار تسند رأسك قليلا تستمد بعض القوّة من ضعف الفتى ثم تتوجه إليه : حكيلي .. لم تزد لأنه بدأ يطيّر الكلمات كما الحباحب تؤنس الوحشة بشحيح ضوئها.

في البداية لم يستكن لفحيح الخوف الذي بدا عليه و أراد أن ينقذ هيبته أمامك و أنت العليل الذي لا حول له و لا قوّة ، إلّا أنه استرسل ... أخبرك إنه يخاف (الجوف) أكثر من أي شيء في الحياة و إنه لم يستطع أن يعصي أوامر والده كان يقول و أصابعه تنفذ في البرغل فيعبئ فمه و يمضي في حديثه ، في الأثناء أخبرك إن عمه (محمد) أول من شق طريقا إلى (الجوف) كان يعتبرها مكاناً مقدساً كانت بيته الثاني ينكأ الساعات و هو يقلّب صفحات القرآن الكريم متمثلاً النبي ، زاهدا بالحياة طامعاً برضى الخالق .

ـ " كنت أجيب له الزاد مثل هالحين "

قال ذلك و استرسل واصفا النور الذي يتفصد من وجه عمه و قال لك انه كان ينظر في عينيه فيحبه فقط دون أن يفكر ساعتها في أي شيء.

و لكزك السؤال عن السبب ، كنت تعلم أن البيوت لا تغلق على بدوي فكيف بكهف كهذا و لم يمنحك الوقت لتسترسل في تأملاتك إذ أخبرك بأن عمه اعتاد على ذلك بعد أن اعتقلته السياسية لمدة سنتين ذاق فيها مرارة الجدران و أخمدت في روحه شعلة الحياة.

ترمّم الآن ـ و أنت تضفر شعر حكاياته ـ ما انقطع منها في وعيك ، تستكين... ترتاح... حتى إنك نسيت الآلام الصاعدة من ساقك ، تنظر في

وجه (مَسلّمْ) ترى لأول مرة ملامح طفولته ، هو الآخر كان مرتاحا حتى أنه صار على مهل يقسم من رغيف الخبز أمامه يغمر قطعاً منه في اللبن الرائب و يمضغ بأناة.

قال لك إنهم اقتادوا عمه ظلماً و اتهموه بتهريب السلاح على الرغم من أنه لم يعرف أكثر من المدرسة و رعي الغنم.

أخبرك عن جدته (أم ثليج) يوم تنبأت بموت ولدها محمد إذ حلمت بأنه يمتطي جملاً قال لك إن نبوءتها قد شقت طريقها للحياة بعد ثلاثة أيام عندما ولج (الجوف) كالعادة فوجد عمه جالسا يحتضن القرآن و يحدق في نقطة ما في الجدار المقابل.

لحظتها توقف (مَسلّمْ) عن الأكل ، أثقلت عليه صور الذاكرة فوقف فجأة ثم مضى دون أن يودّعك حتى ، أحنى رأسه للسقف ثم أسلم جسده لضوء القمر.

الآن تعلم أن عالمهم صار جزءاً منك ، لم تتبين الأسباب لكن روحك مضت نحو ذلك ثم رأيت أنه في الألم تذوب الفوارق بين الناس و وعيت كيف أن الله أرسل لك ـ و أنت تحجل في قاعك الصخرية هذه ـ أناساً يميلون نحوك لا عليك.

تسلّل نهار جديد إلى كهفك ، عندما استيقظت تذكرت و أنت بين النوم و الصحو أين و متى أنت. و تناهى إلى سمعك رنين أجراس قطيع الغنم و هو يمتد أمام (مَسلّمْ) نحو المرعى ، بتثاقل نهضت و امتدت خطواتك نحو باب المغارة ، اقترب (مَسلّمْ) منك ألقى صباحا مشاغبا في وجهك و صُرّة زادك اليومي أمام قدميك و جرى خلف الأغنام

يدحرج لغة لا يفهمها إلا القطيع و رأيت نفسك تعدو مع زيدون و أبناء عمومتك خلف الخراف على حواف مدافن العائلة ، عندما اقتربتم لم يصل لآذانكم سوى خربشات عظامهم تجرح صمت الهواء ،كانت علاقتك الأولى مع الموتى لم تسمع أصواتهم بقدر ما تناهى إليك أمر انشغالهم بأمور موتهم ، يومها تركتم قطيع الخراف الصغير و وليّتم هاربين نحو البيت لتجدوا أمكم تعفر رأسها بهواء الولولة و مضت أمامكم نحو المقابر تلم تناثر الخراف و تؤوبون جميعا نحو البيت.

شربت بعض الماء و غسلت وجهك بأن احتضنت أصابع كفك اليسرى بعضا منه و لشقت نحو عينيك ، بدا صباحك جيدا ، تعبئ صدرك بنسائم ناعمة و تسرّح عينيك خلف عجاج الأغنام العالق في الهواء الرطب و رأيت إلى جرح ركبتك و قد تسلّخ عن طبقة جلد جديدة و هو يمضي نحو الشفاء.

قبل أن ينتصف النهار كنت قد ألقيت خلفك بضعة كيلومترات ، بدا طريقك واضحاً هذه المرة و لم تأنس إلى سبب محدد ؛ ألاقتراب الصخر من وجه الأرض؟ أم لأنك خبرت التخوم أكثر أم لأنك الآن تحمل بعض الزاد و القليل من الماء و لديك ما تدفع به عن نفسك خنجر (ثليج) الذي دسه في جيب معطفك و أنت تتقدم لتقبل جبينه قال لك:

ـ الجود من الموجود و لا تواخذنا يا وليدي

لسانك بدا عاجزا حينها و أنت تواتر الكلمة التي امتدت طقسا هناك:

ـ ما قصّرتْ ما قصّرتْ....

ثم هممت لتقبل يد العجوز ، بدت كابية يغلفها حزن عميق و هي تغرس عينيها بعينيك و تتمتم بأدعية كأنها قادمة من عالم آخر، لم تقل

شيئا إلا أنها ثبتت راحتيها على كتفيك لبرهة ثم أطلقتك كمن يطلق طائراً ، هكذا خلفتهم وراءك و صباحك يرتعش بالبلّ دون أن يتسنى لك وداع (مَسلّم) ... كم تشبه (مَسلّم) الآن وأنت ترعى الصخر ماضياً تقدُّ الأفق، تفصمه إلى ناحيتين .. طاب لك ذلك في اللحظة التي انهمرت في وجهك أول ذات أنثوية تصادفها في حلب تعرفت إليها في ساحة (سعد الله الجابري) شاعت نسائم طيبها وطغت على رائحة العفونة المتصاعدة من الكتب ، وجدتك هناك بكامل قيافتك العسكرية تتهجى عنوان رواية أجنبية منقولة إلى العربية (تاييس) قالت لك :

- خذها ... هي رواية حلوة

عندما منحتها وجهك كنت تتستر خلف حيطان الغبطة بينما روحك تتفصد حزناً .. لم تعرف لماذا لكنك و أنت تغرق عميقاً في عينيها أحسست أنك تعرفها من زمن بعيد و أنك مرتاح لمحادثتها ، اشتريت الرواية ، شكرتها ثم قلت لها :

- كل يوم خميس اني هون

لم تعرف ما الذي أضحكها ؟ لهجتك أم البراءة التي عبقت في كلماتك و مضيت و أنت تتجه نحو الكلية تذكرت بأنهم لا يسمحون لك بإدخال الكتب من الباب الرئيسي فوضعت الكتاب في كيس ثم ألقيته من خلف السور الإسمنتي و رأيته يعبر الأسلاك الشائكة و يتابع نحو الجهة الأخرى ، لطّخت الشمس الغاربة عينيك فتذكرت ضحكتها و عرفت أنك لم تسألها عن اسمها حتى و كنت تضحك و أنت تعبر حاجز التفتيش و ضحك العناصر معك كذلك ... يا لسذاجتي .. كنت تضرب كفاً بكف. قرأت الكتاب بنهم و فهمت أن الشر ليس نهائياً في الإنسان و كذلك

الخير، تذكرت الراهب الذي مُسِخ جرذاً أسودَ و أنت ترقب حيواناً ينزع هارباً من بين الأشواك نحو جحور الصخر و رأيت (تاييس) لشد ما كانت تشبه فتاة سعد الله هكذا أسميتها و هكذا بدا لك و أنت تنقل قلم الرصاص بين أصابع يدك الغليظة ثم تروح بين الأسطر تحف الورق بإشارات تساعدك على الانتباه لمواضع أحببتها و أحطت مقاطع طويلة كنت ترى أثناء قراءتها حياتك تنبثق بين الكلمات تتدفق كمياه صافية، تشف روحك ... تفسح مجالاً واسعاً ليقطنك الحب.

ومضيت نصف النهار و أنت تقلّب الكتب في يوم الخميس دون أن تلمح وجهها و مر خميس آخر و كنت تقضم بقية النهار مغروساً في مقعد أمام شاشة السينما ثم تواثب خطواتك نحو كلية المدافع هارباً من مطر محتمل ، خفت كثيراً من المطر و أنت ابن الأرض..... وأنت ابن الفلاح الذي يصنع الأساطير ليستمطر السماء ، فلا مكان للكتب بهطول المطر .

لم يدهمك الليل هذه المرة لأنك كنت بانتظاره ، انعتقت كائنات و غفلت كائنات بدا حراكها مزعجاً و خارجاً عن إيقاع يومك ، ثم عوى ذئب على البعد فأدركت كم أنت وحيداً و صرت تفكّر بالذئب لا بد انه تخلى عن القطيع أو ربما لفظ القطيع ضعفه ليجول في البرية مستوحشا يسبر الليل عبر نداءات ممدودة تتقطع في فضاء دامس.

كنت تُنزّه روحك بعيدا عن سماجة الانضباط في الكلية و الأوامر التي نخرت جلدك كالكشتبان و رايتها هناك تنتظر بصبر عبور السيارات و تقطع الشارع باتجاه (ساحة سعد الله) تتقدم رويدا تعقد أزرار قميصها على صدر ناهد بلون الكرنفال متدليا فوق بنطال جينز مكحوت ، تنتبه لشعرها لأول مرة يتطاير على كتفيها ـ بينما تمد خطواتها لترتقي

الرصيف ـ كأنه غابة لون يغمره ضياء خالص ... كأن خصلة شمس قد غرقت فيه . هممت إليها و أنت تكبح رغبتك بضمها ، تمنحها وجهاً باسماً . عندما صارت قبالتك بادرت سؤالها :

ـ شو اسمك ؟

قهقهت هذه المرة .. أمسكت يدك ، شبكت أصابعها أصابعك و قادتك كطفل صغير نحو الحديقة العامة . على مقعد خشبي بمحاذاة أبي فراس الحمداني قالت لك :

ـ إشْ رأيك بدون أسماء ؟

كنت ساعتها أمام فيلم سينمائي أغرتك القصة القابلة للروي أكثر فلم تنتبه للعواقب ، بقي اسمها حبيس فمها لم تبعثر حروفه في المسافة فيما بينكما في كل اللقاءات التي توالت في نهارات الخميس اللاحقة و ظل اسمك مخزونا في دفاتر قلبك لم تسألك عنه في أكثر لحظاتكما حميمية.

تبعت فَجّاً قصيراً يتلوى بين الصخور ، يميل عنك لجهة اليمين و ينحدر عميقاً ، قررت أن ترتاح بعضاً من الليل ثم تواصل ، إنهدّ جسمك هناك و رحت تتحسس الصخر ، بدت الصخور موشومة بطحالب لينة فحدست بأنك صرت قريباً من أرض المطر و قبل أن تسلم جفنيك للنوم سقط نجم من السماء و جر خلفه ذيلا من الضوء و تمنيت لحظتها أن يسقط قريباً منك . آنذاك فاجأتك أنياب صفراء تكز في غيم الأحلام ، أفقت مذعوراً و عرفت أنه كلب مَسلّمْ و الغريب أنك طيلة الأيام التي قضيتها في ضيافتهم لم تره أو تسمع نباحه أو تعلم أن له اسماً و كنت شخصا لا يحب الكلاب ، حتى مَسلّمْ لم يجر على لسانه حديثٌ عنه و رحت تعصر ذاكرتك حتى حل فيها كلب اللواء

يومها أعفوك من التدريب جاء دورك قالوا لك و فهمت بعدها أنهم ألقوا إليك مسؤولية عشرين جنديا سيمضون تحت إمرتك إلى استراحة اللواء تبقون حتى نهاية النهار ثم تعودون جاءت التعليمات صارمة ، كان صباحكم قارساً ، لم تكن تعرف الطريق فأمرت جنديا ممن سلكوا الطريق سابقا أن يسير في المقدمة و سرت خلفهم و أنتم تهبطون الجبل داهمتكم الغيوم ، اندست بين ثيابكم كأرواح طافية و صرت ترى جنودك محمولين على هواء ناعم كالريش و بخفة الهواء عبرتم قرية اندست بين التلال و مضت بكم الدرب نحو جسر (الدانة) مشيتم على الطريق الإسفلتي و عند الجسر قررت أن تزل بهم إلى الوادي قلت لهم أن يستريحوا بعد أن جلست على التراب تقذف الحصى بأصابعك و عيناك على بقية الجنود ، عندما اقترب أحدهم منك حياك التحية العسكرية و طلب إذنا بالجلوس إلى جوارك بعد أن قدم لك بعضا من بذور محمصة سألك : لماذا نذهب إلى هناك ؟ طعنك سؤاله لم تفكر بذلك ولم تكلّف نفسك حتى السؤال عن ذلك فقد أمروك بالمهمة و أنت مشغول بتنفيذها ، بإطاعة الأوامر أكثر من أي شيء آخر ، صرت عسكريا ! قلت لنفسك .. و روح المدنيّة قد نأت بعيدا عنك .

شاغلت الجندي الذي بث في روحك قلق الحياة بان سألته عمن يكون و من أي مدينة هو و ماذا يعمل خارج الخدمة إلى أن وصلتم إلى هناك و راح قلبك يغني للعشب .. للأشجار.. للخضرة التي فقدتها طيلة الأيام الخالية ، دونوا أسماءهم على بطاقات و وزعوهم في مجموعات و من بعيد رأيت اللواء كان عجوزا فقد معظم شعر رأسه كان يلعب وحيدا في ملعب لكرة السلة محاطا بأسلاك عالية كان شخصا عاديا غير ذلك الذي غلفت سيرته بالأساطير ، أرشدك أحد عناصر الاستراحة إلى كرفان خشبي يمكنك أن تستريح هنا. قال لك و مضى و لأن روحك

تواقة لهواء آخر رفضت جدران الخشب ومضيت تتمشى في الحقول و الحقيقة إنها لم تكن استراحة بقدر ما كانت مزرعة تنتج ما تنتج المزارع لكن بأيدي الجنود.

انتصف نهارك القائظ و أنت تطلب النسمات بين أشجار الصنوبر، قادك درب ترابي نحو الجنوب أجفلت طيراً هناك ثم مر جندي على عجل فأدركت انه من أجفل الطير كان يهرول حاملا ما يشبه الدلو تاركا صدره عاريا و مرتديا سرواله العسكري لحقت به دون أن تعرف السبب ربما أوقد فضولك ارتباكه أو ربما وجدت في خط سيره طريقا للعودة حيث أتيت عندما بلغ أرضا منبسطة لا يبدد جردها سوى شجرة صنوبر عارمة ترمي ظلالها على بيت صغير لكلب كنت خلف الجندي و كان عليك أن تطرد بعض ذبابات حلقت أمام عينيك ، المرة الأولى التي ترى كلبا بهذا الحجم نقلّت بصرك في محيطه أدركت أن البيت لم يكن صغيرا ربما كان صغيرا عليه اتجه الجندي نحوه لم يرقّص الكلب ذيله كعادة الكلاب بل لبث وقورا هادئا في عينيه برودة قاتلة فتح الجندي بابا صغيرا في سور المعدن و أفرغ محتويات الدلو في وعاء مسطح واسع ثلاث أو أربع دجاجات نيئة .. تقدم الكلب منها لامسها بخطمه رويدا أكل القليل ثم عاود إلى الظل ماداً لسانه غير عابئ بالعالم

وجوه جنودك المتربة و الأوساخ التي تراكمت على بدلاتهم جعلتك تنزل بهم نحو النهر في طريق العودة اغتسلوا و تبادلوا بعض الفاكهة التي اقتنصوها من هناك و رحت ترمقهم فترى أواصرهم تتراخى ... تتطاول .. كأنك في دوامة . يومها شعرت للمرة الأولى بأنك صرت منهم ترى نفسك في وجوههم... ملامحك في ملامحهم ، حتى شكل أنوفهم و كأن نفسك كانت ضائعة فوجَدتها بينهم ، طهرهم الماء أزال أدرانهم و الليل

يهبط ، تنزل إليهم ، تغتسل أنت أيضا تلشق الماء على وجهك و تمسح شعرك وتشرب من ذلك الماء ، ما تزال ظمأناً لذلك الماء حتى الآن .

بينما الصباح يتنفس حولك وتتناثر بضع قطرات باردة فوق وجهك فيأخذك البرد للصحو لم يكن لديك سوى الصخر لحافا فالتصقت بحرارة روحه و صارت أسنانك تصطك دون إرادة منك فغالبت رقادك و هممت بالسير نحو جهتك الوحيدة وكأن الجنوب ينتظرك هناك و أنت تبدد المسافة رويداً نحوه ألقيت في جوفك القليل من خبز الصاج و أردفت بعض الماء و أنت ترمح نحو نهاية هذا الجلف ، بينما تثقل عليك ذاكرتك ، تبطئ الآن ، تغسل وجهك بماء المطر ، كانت غيمة عابرة مثل ذكرياتك التي تغسل جفاف روحك و أنت مأسور للمدى ، لقد انتهى عالمك الذي ما بدأته بإرادتك و هاأنت اليوم تشق طريقك نحو عالم تريده أكثر من أي شيء لقد اخترت ذلك دون إملاء من أيّ كان ، أنت وحدك دون انتباه لمشاعر أحد ، تكتسحك صورة أبيك الآن و أنت تحني رأسك لذاكرته و لباب الغرفة التي سجّوه بها و رأيتهم يتحلّقون جثته الناعمة التي احتفظت بلونها الوردي ، كنت تخاله نائما ، لم يمنحوك فرصة الجلوس إليه وحيدا لمشاغبته أمور الحياة كما كنت تفعل دائما ، انسحبت نحو فراغ الصمت حتى أخبرك زيدون بأنه رفض الموت حتى أخبروه.

كان قد أرخى النهار و هو يداعب جفنات العنب في الكرم الشرقي يركش حولها يقلم أجزاءها حتى عاد على غير عادته تنير وجهه طفولة مباغتة و كان يرنّم أغنية بالكاد تخرج من بين أسنانه ، اندس في الفراش وسط استغراب أمك سحب اللحاف حتى وسطه وأسلم ظهره للحائط بينما يزاحم اللحظات قبيل صدور نتائج الامتحانات ، عندما دخل إليه زيدون بفرح نجاحك رسم على وجهه ابتسامة ظلت عالقة حتى دخلت إليه و

رأيتها تزين وجهه و كأنه سلمك راية حياته اتكل على نجاحك لتقود أسرته لبر آمن .

ـ" شو سويت يابا "

كنت تخدش سكينة روحك بينما تلدغك أشعة الشمس بدفء ينغرس فيك ، يبخر الماء الذي علق بثيابك حتى غدوت كغيمة تسير على حافة الأفق و هوى دربك نحو جرف أرعد أوصالك و جعلك تلفظ حزنك جانبا و تطرد ذاكرتك بظاهر كفك كمن يطرد ذبابة، كانت ذبابة بالفعل ما طردت عن وجهك ، عندما صعقتك الرائحة و بدون وعي كنت تغلق أنفك و فمك براحة كفك تضغط كي لا تدخل في الدوار و سحبك الفضول ـ كي تستبين مصدر الرائحة ـ بضعة خطوات ثم على سيف الجرف مددت عنقك لتراها عالقة بين صخرتين يغطي وجهها ذباب أزرق يمتد أحد سيقانها نحو الأعلى كاشفا عن جزء من بياض فخذها الذي بدأ يستحيل إلى زرقة ،خانتك قواك أقعدتك إلى الصلابة السوداء و تفحصت الأفق هناك ، محيطك الصخري ، امتدت عيناك تفحص حتى الهواء ، قرصك الخوف أم أن أمعاءك التي انقلبت ما جعلك تفرغ القليل الذي تناولته صباحا ، لم تعرف ما الذي جعلك تتدلى نحو صخرة ناتئة لتقفز بعدها نحوها ، فرّت الذبابات بينما تغالب الإقياء و إذ ذاك استطعت أن ترى وجه فتاة شاحب تفتح عينيها إلى دهشة قصوى و ترسل شعرها فاحماً يمتزج بالصخر و يغطي بعضه جزءاً من فمها و رأيت أنها كانت تحظى بجمال آسر لم يغب عنها حتى في لحظات موتها هذا و امتد بصرك نحو نحرها كان محزوزاً بطعنة يبدو أنها جازت حنجرتها مجللة بدماء يابسة سال معظمها نحو الصخر ، كنت تود أن تمضي سريعا صعدت إلى الأعلى ، ألقيت إليها نظرة عجلى راعك أن يحتسي الذباب ماء عينيها و عدت تفحص محيطك مرة أخرى

و فكرت بسحبها نحو بقعة ترابية لتواريها هناك إلا أنك سخرت من خرافة الفكرة إذ لم يكن لديك ما تحفر به و أي أداة تحفر في معدن سال مصهوراً من فم شيطان .. ثم متناسيا جحيم الرائحة رحت تجمع أحجارا صغيرة وتعدها لتغطي جثتها هناك " ربما ابتلعها الصخر" قلت لنفسك فيصهرها داخل أتون وحدته و وجدت نفسك تدخل الساعات فلا يمضي وجهها عنك على الرغم من أنك راكمت فوقها الحجارة والحصى وسط هياج الذباب و جنون طيرانه عندما التصق بوجهك كالغراء ، غرست خطواتك بعيدا عنها و كنت تغادر انتصاف النهار عندما اقتعدت صخرة ملساء مكلوماً بدهشة عينيها ، تسكنك حمى تُخفت قوة بدنك و أنت تُهدل كتفيك فيما تواصل ركبتاك وخزاً حاداً لا يستكين ريثما تمددهما و داخلك قليل من السعال و دمعت عيناك و صرت ترطن بلغة لم تعد تفهمها راحت تتطاول ثم تتراخى و تنسرب من بين أسنانك حاملة أوجاع صدرك و أنين ماضيك .

ها أنت أمام الموت مرة إثر مرة ، يحطمك عنق امرأة مذبوحة و يدلق ما تبقى لديك من إرادة إذ صرت تفكر أنك تحتضر ، فكرت بأمك .. و بزيدون الذي ينتظرك على ضفة أخرى ثم أغمضت عينيك و صرت تجول في برارٍ تدور بك ثم سحبت جسدك رويدا نحو الظل خلف صخرة عاتية ... لكم علقت روحك في الظل ؛ كنت على هامش اليأس .. رحت تمارس احتضارك ، ضاقت أنفاسك إذ ما زال الهواء يصلك فاسدا و صرت هامدا كالجثة التي واريت و رأيت نفسك مغطى بالذباب مسحوباً نحو لون أزرق و فكرت أن الله سيرسل من يواري جثتك و كنت ميتا ساعتها على الرغم من أن الموت لم يكن قريباً منك ، ما الفائدة ؟ سألت ... الجميع يعتقد أنك ميت الآن ... أغرتك رائحة

الموت و أنت تحاول الهرب من العينين الواسعتين للموت الجميل الذي واريته الحجارة منذ آن . رحت تعب الماء ، تشرب كمن لم يشرب في حياته ، أنت ذا مسهب يلوك لسانك الكلمات دون دراية منك ، مهدم الجسم محمولٌ على ارتجاف الحمى نحو عالم لم يعد بين يديك ؛ لم يكن بذهنك عندما أسلمت نفسك متطوعا في الجيش أنك ذاهب لتزهق أرواح الناس جل ما فكرت فيه عندها أن تبقي أسرتك على الحياة ، رائحة الموت ما تزال عالقة بثيابك لزجة كدماء ضب ، عندما يموت إنسان أمامك فإن الموت يطعنك في صميمك ، وحدها الحمى تجعلك تصوغ الأشياء بطريقة أخرى .. تجعلك تطيل التأمل بهذا الجسد الذي تمنحنا إياه الحياة لنواصل المضي إلى نهاياتنا لكن حين يترادف الموت يصبح مثل إشعال سيجارة أو شخط عود ثقاب و أخذتك أعواد الثقاب ثانية إلى المدافع .. إلى الرعدة التي سرت في جسدك عند إطلاق أول قذيفة في صحراء (تدمر) أثناء مشروعك التدريبي الأول ، عندما غمرك الغبار أحسستَ أنك في معركة حقيقية و رحت تتخيل الأعداء الذين تحاربهم .. الرعدة أصمّت أذنيك لكنك مع تواليها لم تتردد بإشعال سيجارة و تدخينها على مهل و خرجت بنظريتك عن شخط الكبريت - القذيفة و هي تجتاز سبطانة المدفع مندفعة في الهواء لا تشبه إلا شخط عود كبريت - هكذا أخبرت من لم يمضوا معك إلى الصحراء كنت تدخن يومها تتذكر ذلك جيدا كيف لا و فتاة سعد الله من جعلك تقلع عن ذلك قالت لك بأنها تكره رائحة التبغ العالقة بثيابك - فلم ترضَ أن تسفح رجولتك أمامها إلى هذا الحد - ثم أردفت أن ذلك يذكرها بأبشع لحظات عمرها ، أخرجت علبة التبغ ثم بلحظة صارت بيدك كالكرة قبل أن تلقي بها إلى جانب الطريق ، عندها لم تتوان ، عقدت يدها في يدك وسرتما معا . قبيل المغيب عبر سماءك طائر جارح فتملكتك رغبة عارمة بالطيران

فكرت برؤية هذه المتاهة من الأعلى ، من فوق ، ربما وجدت طريق الخروج ، و لفظت مع زفرتك الحارة آهة الأسر لهذا السواد المقيت ، شيء ما يتحطم فيك و أنت تسدل ستارة قاتمة على أيامك معها ، سحبتك إلى مقعد في الحديقة نفسها ، قالت لك بأنها تريد أن تخبرك شيئا لكنها طلبت إليك أن تجدد عهدك إليها بخصوص الأسماء ...

- يا إلهي أحس أنني أعيش برواية ؟؟

قلت لها لكنها أردفت

- هذا أفضل لكلينا

حينها أخبرتك بأنها متزوجة و لديها ابنة في المدرسة و أن معرفتك كانت أجمل شيء عاشته في حياتها لأنها لا تستطيع أن تلبس .. تعيش .. بهذا القدر من الحرية في الجهة الأخرى من عالمها قالت إنها تتنكر بأن تكون على طبيعتها دون غطاء رأس ، تلبس بنطال جينز تفرد شعرها فتمضي ؛ هكذا لن يفكر أحد بها وهي على هذه الشاكلة . قالت لك :

- أكثر طريقة ناجحة للتنكر هي أن تكون واضحاً

ثم أردفت بأن صداقتك جعلتها تحس بأنها إنسانة أكثر و لم تكن تعلم تلك المجنونة بأنها وهي تغامر بالوضوح ترغمك على سحب ستارة على ما يدور في أعماقك ، كنت تتفجر حينها حبا ... قلقك خجلك و قلة حيلتك ما جعلك تخفي أمر ولهك بها.

قالت لك : انها تحس بجانبك بأمان لا تحسه بجانب زوجها

لم تتحرك من مكانها و لم تبدِ أي من علامات تشير إلى مشاعرها كانت تهيئ نفسها للبكاء تململت في مكانها ثم أسقطت رأسها دفعة واحدة نحو كتفك وراحت تبكي.

سجى ليلك الآن و جعلت تراصد النجوم بينما تتماوج أسيرة عينيك و مت ... أغمضت عينيك على بلاد واسعة .. رمادية ، تخفي حمرة جمرها على مد الأبصار و مشيت ، لوهلة أولى كانت خطواتك عِثرة مشغولة بالبطء ثم سرعان ما وجدت نفسك حافياً تمشي على الجمر بأسهل ما كنت تعتقد ، و فجأة رأيت القبر الذي صنعته لجثة المرأة و دون إبطاء راحت تنتفخ ثم تبعثر الحجارة التي تغطيها ، كنت ترتعد خوفاً و خجلاً بنفس الآن من كونك تختبر لحظة ضعف الإنسان و صرت تغور في الزمن و صار الزمن بعيداً عنك ، و صرت تسمع دقاته كنبض القلب لحظتها انفجرت فأفقت مذعوراً و وجدت نفسك تتكوم في رحم الصخر و وجدت الصخر يومها أكثر ما يكون من الوضوح أأنت الذي تنمو فيه؟ أم أنه من ينمو فيك؟

خشخشت حرباء و قبعت لوهلة في اللهاث و كنت تراها كائناً عملاقاً يتماوج في صعود وهبوط خلت لوهلة أنها تلتفت إليك ثم تهاجمك بغية التهامك فأخفيتها عن عينيك براحة كفك التي فصلت بينكما ... الحمى جعلتك تلج الهذيان و وددت لو أن مصائب الحياة التي يواجهها المرء يمكن أن يزيلها بأن يخفيها عن عينيه(لا عين ترى ولا قلب يوجع) مر المثل أمامك كشريط لامع ، أنت ترى الآن أكثر من اللازم تمنح الأشياء التي تراها مسافة أخرى و صرت تجرب إزالة النجوم ، فوجئت باختفاء الحرباء ربما بدلت لونها ، أمعنت النظر لكنك لم ترها . هذه هي المشكلة ؛

المشكلة أن الذي كان يبقى دائما هو راحة كفك ... جزء منك فقط فلا ترى إلا لنفسك .

ثلاث ليال ستقضيها وأنت سابح بماء الحمى و غادٍ في أحلامك المترامية، تجلس إلى صخرتك ساكناً تلبث في نفس المكان حتى ضلّت رياح خفيفة نحو صباحك ، سقطت الشمس عليك ، أشعل الضوء جسدك فنهضتَ تلملمُ نفسك و الأشياء التي سقطت منك في الأيام الفائتة ، ثم مضيت مخلفاً وراءك لحظات ضعفك و قد دفنتها إلى جانب صخرة ولم تدر كيف شبكت أصابع يديك أمام وجهك فزال العالم ، أزلت العالم برفّة عين .

تغذ سيرك نحو الجنوب : يااه ما أبعد الجنوب ... رحت تداعب نفسك مزهواً بشيء لا تعرفه تردد كلمات تجعل ملكات عقلك حاضرة تحدّث نفسك مرة وتغني للبرية مرة أخرى ، بقيت كذلك حتى ألقى البدر بقعا من الضوء حولك و وجدت ساعتها أن وجهتك بدت واضحة أكثر من ذي قبل فحثثت الخطى إلا أن روحك أقفرت فجأة مررت أمام كتف صخرة هائلة ألقت بظل قاتم ، فكرت بعالم أخضر و لم تدر كيف عبرت صورتها إليك ، عرفت اسمها من الجريدة أشاروا لها باسم مقتضب (ف) كان اسمها (ف) رأيت جثتها على صفحة الجريدة و قد كتب أسفلها جريمة مروعة في(بستان كليب)و بينما تلاحق قصتها كنت تختبر وقع اسمها على فمك فتردد دون وعي قبل أن ينزل مطر عينيك ف ... ف ... ف ، لم تكن تعلم وأنت تراكم الحجارة فوق جثة امرأة مشلوحة بالبرية بأنك كنت تدفن ذاكرتك ، عندما ارتقيت الصخرة الآن صارت روحك عكرة موحلة و صرت تدور حول نفسك لا تعرف ما الذي تفعل ، فكرت أن تتجرد من ثيابك إلا أنك لم

تفعل و قادتك المسافة نحو (ف) ؛ هل حقا دفنت امرأة هناك أم خيل إليك ذلك ؟ لوهلة لازمك إصرار على العودة ، صرت تخاف أن تكون المسافة قد التهمت رجاحة عقلك و مرت لحظات سِرتَ فيها كالمُسرنمَ حتى أفقت على ارتجاف الصخر قلت مباشرة : هذه قذيفة مدفع (130) وانتظرت تصحيح الرماية ثم تلا ذلك قذيفتان متواترتان لمدفع من نفس العيار ، هذا رمي إيقاعي.. إنهم يدكون موقعاً ما و صرت تراقب الأفق حتى أضاء البعد فبدت وجهتك أخيرا ، ما من أهداف تخاصمك ، في المدفعية ترى بعيون الآخرين .

- يااااااا فااااااااااء

أغمضت عينيك و أخرجت الصرخة من فمك ، وحدها (ف) من ترغب الآن أن ترى ، أن تحاورها كما كنت تفعل و ينطلق اسمها بين شفتيك .. طوال تلك الفترة كنت تخضع لرغبتها بأن تحجب اسمها عن فمك ، الآن و أنت في هذه القفار لَشدَّ ما تشتهي أن تطلق اسمها للريح .. للمدى مرّات ومرّات .. لفضائك حتى يرتجف الصخر . قلت لها : إن قفلة الرواية لم تعجبك فيما كانت تصر على أن جمال الرواية في قفلتها .. كيف تحوّلُ امرأة إلى حمامة و يمسخ الراهب إلى جرذ كنت تردد بشيء من الهزء إلا أنها أبانت بأن المغزى يذهب إلى أن هذا التحول لا يعدو أن يكون أكثر من رمز ليتسنى للكاتب أن يقول كلمته بأن الأشياء ليست في ظاهرها بل بجوهرها فالراهب على الرغم من إيمانه لكنه ظل عاصيا أما تاييس فبالرغم من أخطاء حياتها إلا أن توبتها كانت حقيقية ، أوضحت لها أنك لا تعترض على فكرة التحول نفسها أو رمزيتها لكن اعتراضك على تحويل ما يخالف تصوراتنا إلى

مسوخ .. لماذا ؟ ما الخطأ الذي ارتكبه الكاهن حتى نلغيه و نحوله إلى جرذ ، شبكت أصابع يديك أمامها و قلت لها أنا لا أراك ثم فردت راحتيك أمامها بحركة استعراضية لكنك ما زلت هنا ، يومها سهمت في عينيك و تسنى لك أن تتملى جمال عينيها ثم وقفت ، نفضت ما علق من عشب يابس على ثيابها و قالت :

- أفكارك لا تناسب ما أنت فيه .

دوى الـ (130) مرة أخرى ، لم تفهم ما رمت إليه ساعتها لكن كلامها قسرك كي تعيد ترتيب حياتك ... كم عذبتك مشاعر كهذه ترى كيفما يريدون لك أن ترى ، يأمرونك أن تطلق وأنت في مربضك كأي عامل مشغول إما بنقل القذائف أو اختيار حشواتها أو مراقبة تسجيل الأهداف ثم تطلق سعيرا على عالم لا تراه يخاطبونك بأجهزتهم ؛ ذهبت كثيرا إلى اليمين أو إلى اليسار أو أن رمايتك تقدمت عدة أمتار إلى الأمام أو أنها تخلفت قليلا إلى الوراء فتصحح ثم تطلق ثانية فيأتيك استحسانهم عبر اللاسلكي إصابة مباشرة دون أن تعلم ما الذي أصبت ربما منزلا لن يستفيق قاطنوه ثانية أو مؤونة مدينة أو جسراً أو سداً أو برج اتصالات ... ماذا أصبت ؟؟ ... أنت أصبت الهدف .

وأنت تطلق النيران كنت تفكر بتاييس دائما ... كيف أننا نلغي من لا نريد و تسحبك الأفكار نحو (ف) ألم تقل لك أن أفكارك لا تناسب ما أنت فيه ؛ ما الذي أنت فيه سوى الجيش .. عندها فكرت بالعدو ما هو العدو: أحقا لا يؤمن بالربيع ؟ .. المدفعية لا تجيب لأنها لا تمنحك فرصة رؤيته مقتولاً ، لكن ما الذي تفعل و قد أرسلوك ضابطا إلى القوات الخاصة لتقتات في مسيرات التدريب على العشب و ما تصادف

من حيوانات البر كي تتأقلم مع الطبيعة .. ها أنت تفكر الآن مع كل هذا التيه لم تدفعك وحشتك لقتل سحلية واحدة تتذكر عجرفة تدريباتهم و صرخاتهم العالية ليصنعوا منك وحشاً و أنت لم تكن وحشاً ، كنت الأول في دفعتك في الكلية و أملت أن يبقوك لذلك فيها راضيا بما يحصل عليه الضباط هناك كنت تريد أن تبقى نظيفا لكنهم حرموك متعة دراسة فيزياء القذائف و سقوطها و مساقط النقاط في هندسة المستوي و علاقات الدائرة .. كل العلم الذي طالما أحببت و الذي منحك البعد عنهم . و فوق هذا كله حرموك (ف) ربما لو بقيت لمنعت عنها الموت بهذا الشكل .. فاضت دموعك .. تبكيها الآن للمرة الأولى منذ رحيلها ... الآن تحت إيقاع مدفع (130) .. تُسلم وجهك لريح الجنوب وظهرك لصخرة راحت تهدهدك كطفل وبقيت تنتحب حتى غفوت .. غفوت و آثار ماء عينيك على وجهك .

يزحف الفجر إليك ، يلوي صباحك العطش ، تفكر بالماء تجرع مبددا جفاف فمك ، ليس الماء أن تشرب فقط ... فكرت وأنت تعد أشياءك للمضي (يجب أن يحل الماء فيك وتحل فيه) . هاأنت تمضي لجهة الماء الجهة التي تسقط عليها القذائف .

و أنت تفتح نهارك بخطى ثقيلة عبرت إليك صورة الناس الذين احتفوا بخطواتكم و رأوا فيكم سياجاً يسوّر أمانهم و هم يتساقطون تحت رصاص بنادقكم كالخرق ، كنتم قد أقفلتم الشارع و أنتم ترون جموعهم تقترب كانوا يرفعون لافتات بيضاء دونوا عليها مطالبهم و حين اقتربوا رأيت أحدهم يتقدم مسرعاً ، يرشق عباس مرهن ـ جارك بالمسكن ـ بحجر ، انخلع كتف عباس وسال دمه على الفور فسحبه اثنان منكم إلى الخلف و

أتى أمر إطلاق النار سريعا كان يمكن تحاشي الناس يمكن صدهم بالدروع بإطلاق النار في الهواء لتفريقهم ، لإخافتهم على الأقل و رأيت .. نعم رأيت دمك يمتزج بدمهم ثم أغمضت عينيك كأنك تريد أن تنزع المشهد من أمامك أن تكون الأشلاء التي تتناثر بين قدميك ليست أكثر من حلم ، كنت تعلم أن الدماء التي تسيل في الأحلام تفسدها و لم تكن تعلم بأنها ستفسد عليك حياتك أكثر من أي وقت مضى .. لم تكن جراحك بحاجة لمشفى فأطلقوك لمدة يومين تسنى لك أن ترتب الاتصال بزيدون و تحديد موقفك من كل هذا ، كنت قد أصبحت كائناً آخر .

هدلت يمامة التصقت بالأرض لبرهة ثم تقدمت نحوك بينما تنتظر أن تبعثر نفسها في الهواء ، كل العلامات الآن تشير بأنك صرت على التخوم ، ارتعش قلبك .. هاأنت تخبر نفسك : " هذه حمام بري لا يسكن إلا بين الناس لكنه لا يسلم بيضه وأفراخه لهم " .. صرت أقرب مما تعتقد .. هدلت اليمامة ثانية تقدمت قليلا ثم لوت عنقها متفحّصة المكان و نَظرتْ إليك مثلما تنظر لأي شي ثم فردت جناحيها وطارت .

قبل انتصاف النهار كنت تطل على قرية تخدش خط الأفق ، تنتأ من الصخر ثم تذهب نحو السهل و سلكت بضع خطوات نحوها إلا أن هواجس سوداء جذبتك نحو الصخر فعدت تحضنك ظلاله و رحت تقلب الجهات في رأسك تتقاذفك الأفكار من كل صوب ماذا لو لم تكن القرية لهم سيسلمونني لأقرب نقطة ، أقنعت نفسك بالعدول عن المضي حتى تتبين أمرها و سلّمت نفسك لما اعتقدت أنه المكان المناسب للمراقبة ، جلبت الأفق إليك جلبت قرية وادعة تبدو فلاحة سهلها واضحة ثم حامت عيناك نحو سواد إسفلتي ينكأ خاصرتها لجهة الشرق قلت لنفسك أراقب

فقط أراقب هذا الطريق الذي لابد يحمل على مدخلها شاخصة تشير إلى اسمها و إذا استطعت أن تقطف اسمها ستعرف كيف تقرب المسافة إلى زيدون ستعرف كيف تتجنب أعداءه بعد الوجع الذي كابدت ، مع بداية الليل جِزتَ أولى حواكير البلد ، أهلت بعض حيطانها و غرزت قدميك في فلاحة سطحية بدا لك أنها مشغولة على عجل عجبت للناس كيف يمضون لأعمالهم على الرغم من كل شيء ، هبت رياح خفيفة داعبت رؤوس أشجار السرو على الحواف و تطايرت نحوك بضع وريقات يابسة... تحركت خلفها ... خشخشت قليلا ثم تلوت في مكانها ، كنت تعبر الأشجار ، تخب بين جذوعها ، تبعثر رائحتك و كأنك ترسم حدودك أم انك كنت تقاربها بصخر اللجاة و لم تجد نفسك - و أنت تعبر حقل الزيتون - إلا وقد غمرت إحداها كأنك قادم من سفر بعيد .. تركت نفسك حينها تركت لعينيك البكاء كطفل صغير و رحت تعركهما أمام صمت الشجرات وسط نهنهات متلاشية ، حينها نفذت رائحة الزيتون إليك ففاحت في أعماقك ؛ يا اللـــه .. لم تختلف رائحة الزيتون هنا عنها هناك فلماذا يهدرون كل هذا الوقت ليخلقوا الفوارق بين الناس ، جاءك صالح محمولا على رائحة الزيتون ، رأيت صورة وجهه صافية تخترق الغلس تحت الشجرات التي بدت مطمئنة إليك فرهنت ظهرك إلى جذع إحداها ورحت تنتظر .... ما الذي كنت تنتظره لم يكن لديك سؤال حتى تحر له جوابا فقط نام جسدك و أنت تلملم صورة صالح الرقيب الذي التقيت أول مرة في كلية المدفعية و عثرت به مرة ثانية في لبنان ، كان قد فتح قنبلة وانطوى عليها فأكلت بطنه و فصمت جسده ، عندما هرعتم إليه كانت ترتسم على ما تبقى من وجهه تكشيرة حامضة و ابتسامة خافتة مفجوعة و كانت أشجار الزيتون تلتقط بعضا من قطعة ودماءه التي سالت فوق خشبها .

ثقل هواؤك ، صار رخاماً ، أفاق جسدك دفعة واحدة ورحت تبحث عن هواء آخر ، التهمت المسافة نحو مدخل القرية (بيرالزيت) قرأت وعرفت أنه عليك الانحراف قليلا لجهة الشرق لتحاذيها ثم تعاود نحو الجنوب الآن صرت بين القرى و صار عليك أن تحتاط أكثر على الرغم من أن روحك تهفو إلى الناس وقد صرت خارج السواد الذي التهم عينيك طيلة الفترة الماضية .

نسمة باردة تلسع صباحك و أنت تشارف طيور (الحارك) تلدغك زقزقتها فتفيق على أنك تغامر صوب البيوت أكثر مما يجب ، تنعطف يميناً و أنت تشارفها على البعد و تمضي وحيداً ، تحاذي القرى دون أن تدخلها ، تعبرك رفوف الطير التي انعقدت في سماء ذات غيوم واطئة و يتناهى إلى سمعك نباح الكلاب فتبتعد و ترى لنفسك وأنت تتلقى الهواء الموشى برذاذ المطر فيزوغ بصرك في السهل و تحار أتحزن أم تفرح ؟ ستمضي إلى البلل رويداً رويداً وأنت تفكر أن المطر سيبعد عيون الناس عنك سيجعلك تشعر بالارتواء لكنك بنفس الوقت لن تعرف كيف ستتقدم و خطواتك مأسورة لكتل الوحل التي بدأت تتجبع على حذائك فلم تجد بدا من الالتجاء (لحبلات) الصخر ، صرت الآن تشعر بأمان الصخر ، تضحك في سرك ، على الأقل كنت تحس بأن أرضك صلبة و صرت توشح سواد البازلت بلون الوحل فتعبر قليلا ثم تعاود نحو الرجوم و أفلتت منك التفاتة نحو الخلف فرأيت إلى خط سيرك المتعرج ، كنت تعرف ساعتها انك تحمل مطر النهار على كتفيك و انك ستناضل كي لا تتجمد في الليل ، توقف المطر منذ أوّل الليل وأنت ترصد أنوار البيوت المنبسطة على البعد فكرت بالتوقف أنت الآخر لكنك حدست أن التوقف الآن يعني نهايتك و تخيلت نفسك مرميا في سهل أجرد و بضعة كلاب تحاول تمزيق ملابسك التي ضاقت على جثتك

المنتفخة ، بصراحة لم تعجبك نهاية كهذه فسرّحت نظرك في المسافات حولك ، حاولت الصراخ كي تقوي عزيمتك ، اكتشفت أن صوتك ضل حبيس صدرك و رأيت كفيك تغلقان المدى و تحيلان العالم إلى أصابع ، خطا الليل فوق صدرك و صرت تجرجر جسدك خلفك ، لم تنتبه كيف غشيت شارعها الإسفلتي تعكس مصابيحه خيالاتك المتكسرة حولك بنقع المياه الموحلة ، وعرفتها من أشجار الزنزلخت التي تتوسط جزيرة الشارع و روعتك أصوات القصف المدفعي التي بدأت للتو كانت تجتازها إلى جهة أخرى ، ذهبت رعشة البرد و أولجت فيك رجفة رعب نتأت من عينيك ، صرت تتلفت كالمجانين إلا أن البيوت ارتاحت لك و عمرت بها ذاكرتك ما جعلك تشد أزرك وتغذ السير بينما تبعثر نظرات خوفك في الأنحاء .

نزلت بضع درجات ثم ارتقيت أخرى و وجدت نفسك مقصوماً أمام الباب الذي بدأت تطرقه على مهل في البداية ثم بجنون حتى انفتح أمامك كطاقة أمل ليطل عليك الأستاذ خفت منه لوهلة أم أنه من خاف من صورة وجهك الذي لم يعد وجهك ... عندما أمعن في عينيك كنت قد اجتزت عتبة بابه نحو الممر الطويل .

فصل السواد

من مكان ما تصاعدت رائحة البلوط ممتزجة برائحة الدم الذي يغلّف شعرك ، خثِراً على خدك الأيمن ، رفّ جفن عينك المنقوعة بالدم واستطعت أن تسرق نظرة فرأيت إلى الثلج و بدأت الآن تحس ارتجاف أطرافك ، بدت لحظاتك قاتمة على الرغم من البياض الذي يأسرك إليه، البرد يقرس أصابع يديك و أنت تتحسس سلاحك إلى جانبك و بدأت تستعيد وعيك رويداً ، حركت ساقيك ثم رأسك بينما تحاول دس يدك في جيب سروالك الخاكي ، تأكدت أخيراً وأنت تلملم نفسك بأن لا كسور لديك إنما البرد ما يخشّب جسدك فقط ، أرعدتك وخزات حادة في قمة رأسك سرعان ما فاضت إلى ألم و عرفت أن إصابتك الوحيدة في رأسك و عدت تتلمس موضع جرحك ، كانت برودة الثلج قد هوّنت آلامك صرت تعلم الآن أنك داخل حرش البلوط و الثلج قد أخفى قسما كبيرا من الشجيرات و تذكرت سقوطك أسفل الوادي ، تلقفك الثلج المتراكم فوق الأشجار فاخترقتها و نزلت في فراغ تحتها ، مزّق فروة رأسك أحد الأغصان فأفقدك وعيك و كنت شبماً تشبه الموت عندما بلغتك جلبة لم تستطع تحديد جهتها فلبثت ساكنا دون حراك يدك على سلاحك حتى تبيّنت أنها حركة بلا معنى لكنها أجفلتك فلم تعد قانعاً بالمكوث في نفس المكان ، تتذكر الآن رفاقك و أنت تحاول الانعتاق من أسر البلوطة وخفت أن تهزها فينهار الثلج فوقك ، فكرت أن الصعود إلى الهواء هو ما سينقذك الآن . لمَ لمْ ينقذني عدنان ؟ رحت ترسم له أعذارا ربما اعترضه الجيش و ربما شرذمه بحثه عنك و ربما صرخ إليك ولم تسمع و كيف تفعل وأنت تريح وعيك أسفل بلوطة مغمورة بالثلج ، البلوطة ستقودك إلى السماء ، هي من سلبتك بعض الحياة وهي من سيمنحك إياها ؛ لقد مررت بأصعب من ذلك . هونت على نفسك و أنت تؤازر قلبك ، تدفع بما بقي من حرارة أنفاسك نحو يديك ، تعركهما لترد لهما مرونة الحياة وتسلّقت الشجرة حتى عم نور

خافت وجهك و لفحت وجنتيك برودة الهواء بينما يمتد بحر البياض أمامك ، كان ثلجا لم تخضه رجِل أو تنلهُ يد و امتدَ بصرك في الأرجاء ، و رحت تنقّل خطواتك كمن يرسف في أغلاله ؛ انه يأسرني ؟ قلت لنفسك ، كان مداك مغلقاً بغيم غاضب و قوس رؤيتك يمتد إلى لا شيء ، لم تعد تعنيك الآن وجهة سيرك يعنيك الآن أن تجد ملاذا قبل أن تأفل شمس نهارك فيهلكك الصقيع و كنت تعرف أن بيوت (كتف الجبل) فارغة في مثل هذا الوقت من العام ، يمكنك النزول إلى أحدها ترمم جسدك تداوي جراح رأسك ، النزول إليها الآن يعني الحياة استنتجت و ربما يعني الموت أجبت دون أن يسألك أحد و التقطت بعضا من ثلج بللت فمك ، عليك فقط أن تميل عن حرش البلوط و تدرج نحو بساتين التفاح ، تبحث عن بقعة تراب عن وحل تعركه ؛ "سيكون الليل أكثر أمانا" قال لك السائق الذي أتى به الأستاذ ليقلك لم يكن سائق سيارة بل فلاحاً يقود جراراً زراعياً ثم أردف : ما من طريقة لتفادي حاجز الجيش سنعتمد على ضوء أبصارنا ، لا ضوء لقمر أو نجوم عالقة في السماء يمكنها أن ترشدك إلى طريق كنت تفكر وكان السائق قد حدس فقال : اتكل على الله .

الدرب الموحل جعل محرك الجرار يجأر بينما تعلك عجلاته الكبيرة الوحل وتقذفه إليكما مصحوباً بنثارات المطر ، كانت المدافع قد دوت منذ أول الليل وبعد بضعة كيلومترات لمحت الأنوار البعيدة (لباب الحرير) قال السائق : تعرف الآن كيف تستدل إلى الطريق . كان المطر قد توقف عندما التفت إليك : "حظك حلو" و في الأثناء أوقف الجرار معتذرا عن باقي المسافة عليك أن تلحق الضوء و أنت لم تقو سوى على شكره . ترجّل .. ضمّك إليه ، ربّت على كتفيك ثم أمسك كفك

وهصرها بكفة (الله يوفق) و قبل أن يصعد قلت له : ما تعرفنا

قال : لهون بيكفي .

مع السهل مرة أخرى بعد أن تلاشى صوت الجرار لم يعد لديك ما يؤنس وحشتك سوى صوت المدافع ، فكرت لحظتها بسخرية القدر .. بهذا الكم من الحزن الذي تغرق فيه .

وجدت نفسك أمام قفل الباب فعرفت أن البيت خال من أهله دفعت سنكة البارودة بين فكيه وضغطت إلى أسفل فتفتت المعدن وصرت داخل البيت يرافقك هدير الصمت و القطرات التي تنز من السقف ، أشعلت نارا متخطيا تدابير الحيطة فعمَّ الدفء المكان و شعرت أن جسداً آخر يحلُّ فيك ، تفقدت الأدوات و الأواني في الغرفة المجاورة بدت لك كأنها مطبخ أو شيء قريب من ذلك ، بحثت عن إبريق عبأته بالثلج و وضعته فوق الموقد ثم دسست قطعة من حطب في الموقد فأجّت نيرانه و كالملخوم رحت تبحث عما يؤكل ، كان ثمة قطع صغيرة من الخبز اليابس مرفوعة في كيس عن الأرضية ، رحت تأكل بينما تواصل البحث و نزلت إلى القبو ثلاثة صناديق من التفاح و بضعة لترات من النبيذ يعلوها الغبار كانت بانتظارك ، قضمت تفاحا و كرعت نبيذا لوّن وجنتيك و أشعل في جسدك نارا ، دسست زجاجة في جعبتك ثم طويت نفسك في الفراش وغمرت نفسك باللحاف ثم ذهبت في نوم خرافي حتى أفقت على وقع أقدامهم وهم يطوقون البيت ، أرعبتك فكرة أن يدهموا البيت فيردونك وحيدا و يلفقوا قصة موتك كما يشاؤون ، كان البخار يداعب غطاء الإبريق ، أصخت السمع و على الرغم من تأكدك بأنك ما زلت وحيداً إلا أنك انسللت من فراشك بتؤدة ، دنوت من النافذة على مهل تراقب ليلاً طافحاً بالعتمة و انثيالاً خافتاً لريش ثلج بدا لك أسودَ حينها و أنت تترك النافذة لتكمل صنع الشاي فكرت بحاجة الناس للناس

كي يواصلوا حياتهم جل ما تطلبه الآن شاهداً لموتك لدغتك الفكرة ؛ ألهذه الدرجة انت مسكون بالموت في الوقت الذي تطلب ، ما تطلب أملاً بالحياة و لِمَ لا ؟ و أنت ذاهب لمعركة تعرف أنك ستخسرها مسبقا .

ـ أنا لم أختر حياتي

قالت لك (ف) ثم أردفت

ـ إن جسدي ليس من خلق إله ، هكذا أشعر عندما أغمره بالأسود و لو كان كذلك حقاً فإن الله يخاف مني يستر جسدي كي لا يتذكر نقاط ضعفه .

يومها لم يعن لك بأي حال بأنها تعيش حياتين واحدة بالأسود و أخرى بألوان طبيعتها ، اعتقدت أن ذلك لعدم لبسها ملاءتها السوداء على الرغم من أنه لم يتبادر لذهنك ما يحيل إلى ديانتها لأنها كانت معك طبيعية ليس فيها ما يشير إلى مذهب أو دين ، و حديثها عن جسدها فتح في دماغك طاقة من رغبة وجعلت تتأملها بصمت ثم ذهبت يدك إلى شعرها ، أمسكتْ يدكَ ثم أعادتها إليك برفق ورنت إلى عينيك طويلاً بينما كنتَ تسكب الشاي خارج الكأس، لن تنسى ما حييت نظرتها تلك ، كانت شيئاً يشبه اختلاط أشياء حارة وباردة في آن معاً ، جعلتك معلقاً في الهواء لم يعد لك أرض تقف عليها أو حتى تلامسها بأصابع قدميك ، تنتبه إلى الشاي المهرق خارج الكأس ، بخار الذكريات الذي غيّم الغرفة أفقدك الرغبة بالشرب تركت الإبريق و اندسست ثانية في الفراش و رحت تراقب الخيالات التي تلقيها نار الموقد على الجدران ، ثمة صور تنمو هناك تتمايل تتمدد كالرؤى تتشبث.. تزهر.. تظلم و تفوح منها رائحة الحنين و ظلت القطرات التي تنز من السقف عالقة في دماغك و هي تمنحك شكلاً للزمن لم تعهده من قبل و رحت تسلّي نفسك كي تخرج من هذا

الغرين ، تصوغ كلمات على إيقاع الدلفة ، أغمضت عينيك لتزيح صورة (ف) لكن ذاكرتك لا تني تنز بصورهم هذه المرة بسبب القطرات ، تدرك أن طريقتك لإبعادهم لم تعد مجدية و شعّ خيط من الألم في رأسك ناحية الجرح الذي عجبت كيف نسيته أثناء ذلك ، خلعت قبعة الصوف و رحت تتحسسه بأصابعك ، لديك الوقت و عدت فجرعت المزيد من النبيذ و غسلت الدم المتخثر بالماء وبحثت فوجدت بعض الكحول فعقمت جرحك ورحت تفتش عن جراح أخرى في أنحاء جسمك ، أثناء ذلك كنت تشعر أنك معطل تلفظ حواسك فارغة كما الطلقات .

لاحت منك التفاتة إلى المرآة التي تتوسط الممر المؤدي إلى حمام الماء الحار ارتدّت صفحة وجهك إليك ودهمك كائن خرافي لم تعرفه ... انتهى يومك وأنت على وشك مبادلة وجهك القابع في المرآة بوجه آخر .. أزاح الماء عن ملامحك سنوات من التعب و دون وعي منك ذهبت أصابع يدك الى الجدار المغشي ببخار الماء .. لامست راحة يدك الجدار فغزت البرودة أعماقك و سرت فيك رعشة جعلتك ترتعد و أنت تسحب يدك و رأيت إلى المكان الذي طبعه كفك ، كانت يدك هناك تنز خطوطا مرتعشة تسيل على بلاطات السيراميك فتكشط عنها لوناً أزرق ... لحظة أفقت فيها على صوت الأستاذ و قد أعدّ رزمة ثياب دفعها إليك من خلف الباب ، في الصالون غمرك الموقد بالدفء و أنت تجلس أمام سيل الأسئلة التي دهمك بها .. أحسست أن رغبتك في الكلام قد تصاعدت مع بخار الشاي الذي سكبه أمامك ، قلت للأستاذ : لا أعرف شيئاً الآن ... بدت الجملة نافرة من جلدك المتخشب آنذاك ، كان الأستاذ يطلب منك أن تنتبه للعالم من حولك ... للدنيا .. لم تقل له حينها إنك عندما تدخل الجزء فإن رؤيتك للكل تتلاشى و كنت حقا لا

تعرف شيئاً ... فقط زممت شفتيك وقلت له : أريد النفاذ إلى (باب الحرير) و قبل أن يقول شيئا أردفت : فقط سيارة ممن تثق بهم .

كنت قد مددت أولى خطواتك في أرض النوم عندما تسلل نور خافت عبَرَ زجاج النافذة ،كانت ليلة خوف ، حتى الأشجار بقيت ساهرة لوقت طويل و هي تنوء تحت دوي قذائف المدافع و المطر و الأهالي الذين التصقوا بجذوعها ، في الصباح وجدت نفسها و قد أسقطت أوراقها و رأيت الحياة خضراء على الرغم من الدمار الذي لحق البيوت المبنية أصلا على عجل . تقدمت في شوارع (باب الحرير) كان ليلك صَرِداً أما الآن فقد بدا صباحك طَلِقَاً على الرغم من الأنين الخافت للبيوت و تعب الناس وهم يهنئون بعضهم بالسلامة بينما العيون تحدق بك كأنك جثة خارجة من قبر ، زاغ منك البصر و أنت تحاول الانعطاف ناحية اليمين إذ رأيت إلى نهاية سبيل مغلق ، ساعتها لم تعرف كيف امتد الخوف إلى روحك ، المرة الأولى التي تشعر بذعر إلى هذا الحد ، ربما شعرت بأن انسداد هذا الدرب كأنما انسداد لمسار حياتك و يَبِسَ جسدك هناك .

زيدون قال لك و هو يحتفي بوصولك مع عدد من رفاقه إنه لم يعدم أمل وصولك إليه إذ إنك أهدرت كل الوقت وأنت حبيس الصخر، أخبرك بأنه كان يعلم بأن المسافة تلدغك هناك بينما يلدغه غيابك ، قال انه فكر بالذهاب إليك و رسَمَ لذلك الخِطط و هيّأ الأدوات دون جدوى ، لأن الذهاب إليك سيكون ضرباً من الخبل ، سيكون أكثر ألما من الدخول في متاهة قال إنه تنبأ بخط سيرك على الرغم من إنه لم يع يوماً جغرافيا المنطقة إلا أن بوصلة قلبه أوصلته إليك ، بمجرد النظر إلى خارطة سياحية قال لهم : سيكون هنا و أشار إلى موضع (باب الحرير) كان يزقزق

كعصفور، تتطاير الكلمات من فمه ناعمة كالريش ثم بلحظة واحدة تلبد وجهه و غاب صفاء عينيه و بدا كأنه انكمش على نفسه :

- بدي خبرك قبل ما تسألني ... الوالدة أعطتك عمرها

كأن روحك فاضت عن قميصها فوقفت دون أن تتفوه بقول و رحت تدور في المكان أم تدور على نفسك ؟ لم تكن تعلم . لحظتها أرهقك الشوق إليها و دهمك قطار حياتها و هو يمر سريعاً أمام عينيك ، الآن تريد مقايضة كل شيء مقابل برهة تجلس فيها على سطح البيت أمام الرابية المعشبة ، توالي مغيب الشمس دهراً . كان زيدون قد هبّ إليك أوقف تيهك بأن دفن رأسه في صدرك وهو على حافة البكاء وكنت متماسكاً حينها لكن روحك بدت مثل حجر صلب و كأن أعضاء جسدك قد امتدت إليها صلابة البازلت فصرت واقفا كالعمود حتى أنك أمسكت كتفي أخيك أبعدته برفق و عدت تهتم لشؤون يومك .

كفّ الثلج عن الهطل ، البيت يعبق برائحة الدخان ممتزجة بخزين التفاح ، انبعث منك أنين خافت ولمحت إلى الأشجار وهي تنوء تحت حملها الأبيض أما أنت فما تزال تقصم ظهرك الذكريات ، فكرت الآن وأنت تتزود ببعض التفاح أن تكتب ورقة صغيرة تعتذر فيها لأصحاب البيت عن الفوضى التي خلفتها لكن الفكرة بدت لك في غاية السذاجة فعدلت عنها و حذائك يخسف الثلج فتمد خطوك خارج سور البيت ، سفَّت رياح خفيفة وجه الثلج و رسمت آثاراً هناك بينما تلفحك برودتها و تحمل إليك بضعة أصوات تتهالك على البعد ما لبثت تتعالى رويداً رويداً ، عندها بلغك أزيز الطلقات ، ألهبك صوت المعركة فتفصد عَرَقُكَ وتسارعت خفقات قلبك و صرت تراوح في أرضك كحيوان حبيس فتمسح المدى بعينيك لتعبر الغيوم التي شرّدتها الريح فتضيّع جهاتك و قلت لنفسك هذه

المرة لك جهة واحدة هي جهة الرصاص لن تكون هنا و رفاقك هناك فنشبت عن الثلج ورحت تعدو نحو الخاصرة العليا للجرف ، لم تكن تصغي إلى صوت الطلقات بقدر ما تصغي لصوت قلبك ، كرهت الثلج الآن كرهته لأنه يعيق تقدمك هذا الأبيض الأبله يعميك الآن .. يقذفك إلى سواد و كأنك لا ترى شيئا رحت تفتش وأنت بكامل الحواس عن جهة المعركة وعلى البعد استطعت أن ترى صحن الرادار ما يزال يقف هناك لكن بدا كأن نارا تشتعل حوله هممت الخطى فدهمك الطريق العام الآن تعرف أنك بت قريبا . طلبت من رفاقك أن يسبقوك أما أنت فنويت المرور إلى البيت تسلم عليه و تعرّج إلى قبري والديك على الأقل تضع وردة على قبر أمك .. اخترت عدنان رفيقاً لك كانت الخطة أن تصلا إلى (وجه الحجر) سيكون لدى كليكما ما تحتاجان إليه في نقطة اللقاء المتفق عليها ، اهتزت بك الشاحنة ، العالم يهتز أسفل قدميك الدنيا رجراجة لا تجد لها مستقراً و أشجار وجه الحجر كانت ذات خضرة تميل إلى حمرة داكنة ، عندما أشرفت على القبور توقف عدنان ثم جلس إلى صخرة سأرقب الطريق أخرج سيجارة أشعلها ثم نفث دخانها نحو اللاشيء ، كانت الشمس ترسل أشعة دافئة نحوك و قدماك تكسّران نحاس أوراق العنب مغموراً بطين الوقت ، استلقيت بين القبرين كطفل صغير و صالبت ذراعيك تريد احتضانهما معا و حاولت .. حاولت أن تتحدث إليهما لكنك لم تفلح ذلك أنه من أصعب الأشياء أن تحادث جدثين يكملان دورة الحياة تحت التراب و لمحت إلى عدنان كان يغالب البكاء ربما فكر بالمصير الذي سيؤول إليه البشر أو ربما كان يبكي لبكائك ثم ما لبث أن انزلق عن الصخرة ليسلمها كتفيه ، فكرت بوالديك صارا الآن جزءاً من الماضي تمنيت أن يفر حاضرك مثل الطائر الذي عبرك نحو مدى لم يعد باستطاعتك رؤيته. لبثت قليلا

قبل أن تطأ الشارع ، الشيء الأسود الوحيد الذي يتلوى صعوداً حتى يصل إليك و عدوت قليلا قبل أن تلمح سيارات الجيش القادمة من الأسفل تتأكد أنها الآن قادمة لدعم عناصر المحطة أو ربما لفك الحصار الذي يفرضه رفاقك الآن و لاحت منك التفاتة إليها ماتزال النيران تتعالى ودوي الطلقات ما يزال حاضراً... فكّرت .. ربما حان الوقت لمعركتك الآن .. وحيداً ستقاتلهم ، فكّرت بعدنان كم أنت بحاجة إليه الآن و استطعت أن تجمع ما تسنى لك من الحجارة حتى أغلقت الطريق و بلحظة توهج استطعت أن ترسم خطتك على عجل و بكمينك الصغير هذا ستشغلهم حتى ينتبه رفاقك لهذا ، الذي أحزنك أن خطتك تقتضي الابتعاد عنهم لأنه لابد لك أن تقود الجيش إلى ناحية أخرى ، هذا ما تريد .

توقفت السيارات بحذر ، و من الموقع الذي اخترت استطعت أن تطلق على العجلات الأمامية للسيارة المتقدمة ،انفجر الإطار على الفور ثم انهال رصاصك نحوهم أعماهم ذلك قبل أن يتمكنوا من رؤية ما يحدث و كنت قد أوقدت في رجليك ناراً جديدة للركض ، استدرت نحوهم ثم رشقتهم بصلية مديدة جعلتهم يلتفوا إليك ، بقي بعضهم هناك وكرّ الباقون نحوك ، انزلقت قليلا ثم بدأت تدخل شِعب (جورين) ستنخفض نحو البحيرة التي تتوسطه و تعبر جانبها الأيمن سريعاً ، ستشتت آثارك و كنت ترى الغيوم تسير متثاقلة أسفلك في الشِعب يكفي أن تنزلق أسفلها فتختفي عن أنظارهم لو كانت تستطيع أن تحملك إلى أعلى ،انحدرت على الثلج تتزلج سريعاً نحو الأسفل خفت أن تلدغك الطلقات في إثرك سيقولون إنك كنت هاربا . لوهلة ساورك الضحك ما الذي تفعله إذاً ؟ أجبت نفسك وسط تلاحق أنفاسك : أناور ... أنا أناور ، علقت الكلمة على لسانك وأنت تُنزل في نفسك حماساً خالياً من المعنى، اجتزت الماء قفزت خلف جدار و زحفت نحو حرش البلوط ثم تراجعت إلى الخلف كي

تخفي وجهتك غمرت نفسك في الثلج ورحت تنتظر وصولهم حتى ظهر ثلاثة منهم وقبل أن يصلوا إلى الحرش فتحت نارك صوبهم ، قتلت اثنين منهم و أقعدت الأخير إذ نفدت رصاصاتك في كلتا رجليه ، صرخ .. تلوى ثم التقت عيونكما ، دنت فوهة بندقيتك من رأسه فغرق في صمت الأموات ثم إنك أخذت سلاحه و مضيت دون أن تُجهز عليه و إذ دانت منك التفاتة نحوه رأيته وهو يمعن فيك بينما تختفي في الحرش ، لحظتها جثم صمت حاد فوق صدرك ، كان الموت قد أفقدك الرغبة في أي شيء و تمنيت أن ترى الأستاذ ، كان عليك أن تقول له ما يجب أن تقول و عليه أن يفهم أن أي تأجيل آخر سيفي إلى الانتحار و أن الفوضى هي ما يعني لهم أكثر و تذكرت كوب الشاي الذي كان ساعتها يدفئ يديك بينما تحاوره ، الآن تكاثف هواء صدرك على هيئة غيوم صغيرة بينما تسحق تحت قدميك ثمار البلوط المتعفنة و تصدر قرقعة هي ما تبقى الآن من أصوات في مداك، كنت ستقول له : إنك هنا ترى الأشياء بصورة مغايرة ؛ في مكانك لا حلول وسطى لأنك في اللحظة التي لا تكون فيها قاتلا ستكون مقتولا أما هو فيستطيع أن يرى أفضل وتمنيت أن يكون الأستاذ بخير وأن تستطيع التواصل معه.

مرة أخرى ينغلق مداك على اللاشيء.. دائما ينغلق مداك و دائما محكوم بتيه أحمق ، حدثت نفسك ؛ كنت هناك تائهاً في سواد البازلت و هاأنت هنا تتوه في البياض ، كنت تفكر في هكذا ثنائيات عندما برزت الرؤوس العالية لأشجار التفاح العارية عرفتها من ميل أغصانها إلى الحمرة ، أنت الآن على الحواف يمكنك الخروج من الحرش في أية لحظة لكن لما تفعل ، الحرش يمكن أن يضيّع قبيلة .

كانت الشمس قد صعدت بين الغيوم و قبعت في قبة السماء ، وصلك نورها أكثر من دفئها عادت أصوات المعركة تصلك من جديد ، لكنها صارت بعيدة الآن و أنت عاودت الجري ، لن يتسنى لك أن تعود أدراجك قلت : تصعد نحو انحدار التل لجهة الشرق فتلتف خلفه ثم تعاود نحو الشارع العام و حدست أن ذلك سيأخذ منك أكثر من النصف الذي تبقى لك من النهار و كنت جازما بأنك ستلقى رفاقك قبل المغيب على أكثر تقدير و نزفت ذاكرتك بأسمائهم .. بصورهم .. بسحناتهم الغضة ها أنت الآن ترش على غيابهم ملحا فكرت بالقتيلين اللذين خلفتهما هناك ، بالدماء التي ذهبت ببراءة الثلج و الذعر الذي تلبد في وجه الجريح .. لشد ما كانوا يشبهونهم .

استجمعت هواء صدرك و ارتقيت الساتر قليلا ثم أعطيت إشارة الهجوم ، تحركتم خارجين على مهل غاصت أحذيتكم في أرض مفلوحة و انفصل رجالك إلى ثلاث مجموعات و غِرت أنت ومن معك في العمق اشتبكتم بجنود انبعثوا من الأرض و فاجأك بأنهم أعدّوا كمينا لمجموعتي اليمين واليسار ، التفوا خلفكم و كنت ترى لكومة الأجساد التي انزرعت في فلاحة السهل حاولت تغطية انسحاب بعضا منكم و وجدت نفسك تحمل عصا ، بدت الفلاحة مغمورة بالدماء و زيدون يلتصق بها ، كان بحاجة إلى رصاصك كي يتسنى له التراجع و زحفت إليه حتى أمسكت ببندقيته و طلبت منه أن يُنظم انسحاب البقية و رحت تطلق النار و أنت تسير إلى الخلف ، لحظتها دوى الانفجار واندلعت النيران حتى وصلت ألسنتها إلى السماء ، كان وسيم قد وصل مستودع الذخائر فألهبه عند ذلك تراجع مقاتليهم للمؤازرة فارتد الأمر عليهم و وجدت نفسك مغسولا بالدم إذ انتزعت شظية داشرة جزءاً من خاصرتك اليسرى أما هم فقد تبعثروا في الجهات إذ ظنّوا أنكم استوليتم على الفوج ذلك ما

سيمنحكم فرصة التراجع و كنت قد أطلقت أمر الانسحاب بينما جراحك تتمرغ بطين الثرى . أنقذك رفاقك و كنت تكبّل ذعرك و أنت على حافة الذهاب و قد أربكتك كاميرا الموبايل التي زعزعت يقينك بالنجاة و أردفت إلى ترددك و خيبة الكلمات التي غمروك بها فكنت تحاول عبور أنفاسك باختيار كلمات ترتجف على شفتيك لاعتقادك أنها كلماتك الأخيرة لم تعِ بما تفكر حينها بأهلك أم بوصيتك التي تتلوها أمام شهودك الآن فيما بعد سترى صورتك عبر الموبايل و رأيتهم وهم يسجلون موتك و كأن موتك كان قابلا للتسجيل ، يومها رأيت الموت كأي شيء من أشياء الحياة و أدركت أن ثمة أشياء ماتت فيك و تلقفت أنفاس الحياة أشياء أخرى .. قال لك عدنان يومها : لا تحزن لعلهم يسجلون حياتك.

تعالى صوت لهاثك وأسندت يدك على جذع سنديانة بينما خفَت صوت المعركة ، تلاشى تماما ربما حاصروهم .. ربما انسحبوا ... ربما انتصروا ... أسلمت ركبتيك للثلج و حبوت نحو الجذع ألقيت ظهرك إليه ، عليك أن تتأنى الآن .. احسبها جيدا ربما خروجك الآن يعني الموت و ربما الحياة ... تلاشى لهاثك وانتظمت أنفاسك و أغمضت عينيك على (ف) ، رأيتها ترتدي فستان عرسٍ أبيض ناصعاً موشىً بدانتيلا من نفس اللون ناحية الصدر يضيق على خصرها ويمتد طويلا خلفها و رأيت الأولاد يرفعونه وراءها ثم يتطاول ... و يتطاول يمتد فوق الجدران و يعبر الحواكير ، يغلف الأشجار .. يغطيها وترى إلى الأولاد ... أولاد كثر جعلوك تنسى النظر في عينيها و دارت بك الأرض ... دارت كأنك مخمور ، عندما التفتت إليها صارت بعيدة جداً حتى أنك لم تعد تراها فقط بقي فستانها يسحب العالم خلفها و أفقت ...

أفقت على البياض الذي يأسرك لديه ورأيت نفسك أسير (ف) ، أسير وضوحها ، تمنيت لو كانت إلى جانبك الآن لكنت صدّعت رأسها بالأسئلة (فكرت برأسها) كانت تعرف ماذا تريد رغم القتام الذي عاشته فلِمَ لا ترى شيئا رغم البياض الذي يغمرك . أجفلك موتها .. يومها فكرت أن تنتقم لها ربما بسبب موتها الشنيع ثم خطرت أمامك بقوامها الغاضب ... بعينيها الساهمتين دائما ، فكرت بتاريخها بالذي فعلته ... ما الذي فعلته .. حملت جسدها للرجل الذي اختاروه لها غلفته بالطريقة التي تعجب رجلها و قدمت نفسها إليه مجرد جسد ... جسد بلا روح أما زوجها فراح يلتهمها مثل أي أكلة يحبها قالت لك: أنها كانت تحس بأنه ينتقم لشيء ما أثناء عريهما ، أما هي فحسبما أردفت فإن جسدها كان ينتقم لذاته ، جسدها من كان يقطر السم في فم زوجها و كانت متأكدة بأنها ستقتله ... " حتما سيموت " قالت لك . قَتَلته نعم قتلته .. قَتَلتْ فيه كل شيء يدل على انه إنسان ، صار وحشاً و لم تحدس بأنها ستكون أولى ضحاياه ، صار قاتلا . فكرت لحظتها بهوية القاتل على الرغم من انحيازك لها لكونها الضحية إلا أنها حقا ساهمت بقتل نفسها وربما قتلت نفسها مرات و مرات ، و كنت تزفر هواء صدرك في فراغ بارد و رأيت إلى الشمس خفيفة تحملها الغيوم نحو الغروب ... فكرت ثانية بـ (ف) أنت حقا لم تعرفها إلا على هيئة روح بيضاء تمتد على الأشياء ، كذلك كانت تاييس أم أنها المرأة على العموم ؟ و إلّا لماذا تعتقد الآن بأنه كان عليك أن تتذوق طعم عريها أنت الآخر ؟

تمضي الآن .. تنفض ما علق من ثلج على ثيابك ثم تغادر الحرش ملدوغا بالوحدة و بعض من حرارة شمس آفلة في الوقت الذي يغور حذائك في الثلج و تقصمك الرطوبة التي أهلكت مفاصلك. (ف) لا تشبه تاييس استنتجت عندما باغتك وادي (الحافة)، كان يداعب الصمت بخرير مياهه الناعم و لحظت خرابا رومانيا يرقد وسط ضفته الأخرى ، خلت أن باستطاعتك جعله متراساً لبعض الوقت ، جهته الخلفية محمية بالانحدار الهائل و واجهته تطل على المكان الذي تقف فيه فتجعل الأفق قابلا للمراقبة ثم إن مياه الوادي ستضيّع آثارك ، صنعت متراساً صغيراً من الحجارة و سخرت من نفسك ؛ حجارة الرومان ستقيني رصاص أبناء جلدتي ، كان ثمة جنبة سماق تتكمش في الصخر و قد صعدت عساليجها نحو الضوء و رأيت إلى الفتحة التي تعبرها فامتد بصرك نحو السماء التي غرقت في وحدتها و جعلَكَ عواءٌ ضائعٌ لذئب بعيد ذاهلاً في اللّامعنى إلا عندما امتد بصرك نحو النجوم ، لعنت سوء الحظ ، كنت تهرب من الموت طيلة الفترة الماضية لا خوفا منه بل لتموت بين رفاقك أما أن تموت بسبب الجليد فهذا ما لا يتصوره عقلك ، لن يسعفك أن تشعل نارا ـ إن وجدت ما توقد به ـ لأنك ستكشف موقعك في العراء ، قضمت بضع تفاحات لتسند طولك ، ثم تكورت على نفسك ورحت ترصد الأفق المقابل ، لن تصمد كثيرا... عليك أن تخلع باباً آخر ، هناك ستحس أن العُرى التي تربط الأشياء ببعضها قد انفصمت و أن إحساسك بالبيت قد تضاءل لدرجة الخواء لكن الدفء الذي غلغل في جسدك بعد أن دسست جسدك في الفراش سرّى عنك قليلا خرجت من متاهة البازلت تلك كائنا آخر حتى انك وبعد مضي عدة أشهر من القتال المتواتر و فتح الجبهات هنا وهناك لم تعد تعرف نفسك كانت روحك قاتمة تطرح قاراً خلف خطواتك ... أكان عيك أن

تخوض ثلجا حتى تغامر صوب براءتك الأولى ، كنت تحدثُ نفسك بأفكار من هذا النوع و عندما خطوت إلى النوم قفز (أبو العنود) إليك شاهرا مسدسه نحوك كنت قد عرفته من قبل عندما بدأت تخطط لاقتحام اللواء 50 نصحوك أن تنسق معه ، عندما التقيت به وجدته مهذارا أكثر منه مقاتلا و لم تعرف كيف طافت سمعته في الآفاق ، كان مساعدا في السياسية ـ هذا ما عرفت لاحقا ـ ثم تدبر أمر نقله إلى قيادة الشرطة قبل أن يتدبر أمر تسريح مبكر ثم صار قائدا في الجيش الحر أول الأمر ثم أميرا في جبهة النصرة ، صار يقتلع عيونا .. يقطع أيدي (لا وقت للأسرى) كان يقول ثم جابت صورته في المناطق التي أغار عليها لم يعد يملك قلباً ، قلبه كان فاسدا منذ زمن بعيد ، اسمه كان يخلي المخافر و يؤهب القطع العسكرية ريثما يعبر القرى والمدن المدمرة .

عندما أغرت على اللواء 50 لم تجد سببا لانسحابه و جماعته قبيل الهجوم ، سوّغ بعد ذلك بأنه اكتشف ، كمينا لكنه لم يعلّق أبدا على عدم إخباركم عنه ، كنت تحس بالوحدة هناك إحساسك بها هنا حاولت أن تدرج في النوم أخذك ارتعاش النسائم الباردة التي تعبر مفاصل النوافذ و الأبواب إلى اللجاة رأيت بحر السواد يتلامع أمام ناظريك و فجأة بدا موج أسود يرتفع حتى يبلغ صدرك ثم إن قدميك وجدتا صخرة استقرتا فوقها ، فألفيت عجوزاً يجلس على كرسي صغير من الخيزران يظلل وجهه بقبعة واسعة من القش يمسك بكلتي يديه طرف قصبة يتدلى خيطها في الهواء ، دنوت منه لوهلة سخرت من قلّة عقله ثم ما أن اقتربت أكثر حتى قصف الرعب رجليك ... عندما رفع رأسه امتد وجهه عميقا فيك صرخت :

- بيبي شو بدك تصيد هون ؟

هزَّ رأسه بإلفه ثم عطف على سؤالك :

ـ اسأل حالك .

لحظتها انطلق نفير باخرة تعبر على البعد فالتفت إليها و عندما لويت بصرك نحو والدك كان قد اختفى فرحت تصرخ أبي ... أبي .

أحسست أن ثمة ما يدور حول البيت ، انسللت إلى سلاحك ألقمت رصاصة في حجرة النار بأناة ثم زحفت نحو الباب ، قرفصت بجانبه تنتظر نفوذهم إليك كنت متأكدا هذه المرة و جعلت تقلب سيناريوهات عدة للمواجهة ثم إن شيئا من هذا لم يحدث أكان إحساسك بحركة الخارج حقيقيا أم أنه تسلل إليك من الحلم لم تعد ترى فرقا بين وقائع حياتك وأحلامك . وأنت تفتش عما تأكل تذكرت محمود و رأيت إلى من تبقى من رفاقك يضنيهم الجوع ... يعتصر عيونهم و يرسلها إلى الفراغ ، فكرت يومها وأنت تمد بصرك حتى آخر سهل أجرد لترقب حركات الجنود على البعد ما كان يقلقك أكثر ماذا ستفعل ... كيف ستطعم هذه الأفواه التي التزمت بك و وضعت ثقتها فيك .. من الأهالي أتاكم بعض العون كنت تعلم وأنت تقبل القليل من الأطعمة و البطانيات الخفيفة بأنهم يعممون حياتهم للخطر و الأدهى أنهم كانوا بحاجة إليها أكثر منكم ، كانوا يحزمون بطونهم على سغب ـ في الأصل لأن أنفسهم عافت عن الأكل لكثرة ما ذرفوا من دموع ـ و تعلم أكثر أن المدافع كانت تعاقب تمردكم فيهم ... جاءك محمود كالغيث ظل يسأل عنك ويلاحق أخبارك هنا وهناك حتى وصل إليك ، هطل من الشاحنة ثم فتح ذراعيه لك راقتك سمرته وحمرة الرجولة في عينيه و تذكرت قمح البلد

ـ أخيرا واحد من هناك ؟؟؟

فكرت لحظة ضمك إلى فراعة طوله و لثم جبهتك كيف أن الجملة انزلقت من فمك دون أن يتسنى لك التراجع عنها ، أردت أن تعتذر لكنه لم يمنحك وقتا إذ نفرت على فمه ضحكته النحاسية التي ولجت صدرك سريعا ثم قادك من يدك إلى الشاحنة و بعينيك رأيت أشولة السكر و الأرز و عبوات الزيت و صناديق المعلبات ثم فتح باب كابينة السائق و أشار إليك بالصعود .

- نزلوها وين ما بدكن ...

قال لك وكدت تبكي حينها لفرط فرحك و تذكرت المرأة التي التقيت في قبو المدرسة الثانوية أثناء قصف الطيران لباب الحرير كانت تحتضن مجموعة من الأطفال تحت جناحيها وتغني لهم .. كانت تغني فيخفت صوت القصف ثم يرتفع صوتهم بالغناء ، كانت الأغنية آنذاك قادرة على اجتراح أشياء لم تكن قادرة عليها كل الأسلحة - تحاول أن تتذكر الأغنية الآن دون جدوى - قلت لها أن تترك شيئا لرفاقك وتوزع حمولة الشاحنة بمعرفتها . حدست آنذاك أن امرأة قادرة على تبديد ذعر القصف بأغنية بإمكانها أن توزع حبك للعالم أجمع . فكرت أن تغني إلا أنك لم تفعل بل بحثت في جوانب البيت حتى حصلت على شمعة أشعلت ذبالتها فراحت شعلتها تتطاول ثم رأيت رأسك ممدداً على الجدار .

من يومها حفظت ذاكرة جهازك الخلوي رقم محمود صرت تتصل به عندما تكون حزيناً .. أو فرحاً .. عندما تنتصر في إحدى المعارك أو عندما تهزم ، صار مشكاة ضيمك - لكم تود أن تتصل به الآن - ستتوالى شاحناته ، قلبه الجسور كان يتخطى كل الحواجز و يستطيع بفطنته و أحيانا برعونته أن يصل إليك إلى أن انقطعت أخباره و علمت

يومها أنهم اعتقلوه ؛ "لو كنت هنا" ، كنت تخاطب ظلاً أسودا .. أنت ذا تسخر من نفسك ، ربما يقاسي الويل الآن و ربما نزعوا عنه نور الشمس إلى الأبد .. ترى إلى ظلالك لقد وجدت من تسحب وحدتك إليه لأنك حقا كنت بحاجة لمن تقاسمه أنفاسك، رحت تقلد أشكالك الممسوخة على الجدار ؛ قلت لنفسك ثمة من يراني على هذه الشاكلة أو على تلك .. ما الذي تطالع نفسك به . صرت لوهلة ترى بنفس الطريقة أحسست لبضع دقائق أنك لم تعد تفهم شيئا ، وعلى الرغم من أنك لم ترد ذلك إلا أنهم سلّموك خطة الصعود لـ (كتف الجبل) ، كنت تعلم انك لن تثير أكثر من زوبعة صغيرة ، كنت تطلب الموت لا أكثر اعترف الآن ، ها أنت بينك وبين نفسك فلماذا تواري ضعفك خلف هذا الصلف و لماذا تدعي لنفسك أشياء ليست فيك و ذهبت سريعا إلى أريكة الأستاذ لم يكن يريد أكثر من نصف ثورة ، الآن أنت مقتنع بذلك ، يريد أن يحل أناس أماكن أناس وينتهي الأمر أما أنت فأردت قلع الشجرة البائسة من جذورها .

دوت البنادق و اشتعل الجو بغبار صوتها ، ربما لا تريد تذكر هذا الآن لكن ذاكرتك تحزم كل الأضواء وتصبها في محرق واحد ، أغمضت عينيك يومها كنت تزيح المشهد لا تريد أن تصدق أن هذا الهواء و تلك الرائحة هي نفسها ما يتنسمه الجميع ، كان هجومكم على الفوج 10 ناجحاً فخرجَ أحد الجنود من خندقه رافعا يديه مستسلما ، كان الناجي الوحيد بينهم و كنت أول الواصلين إليه و رأيت إلى نظرته تتفتت وهو يحاول سبيلا للنهوض إلا أن قواه قد خارت ربما فقد إحساسه برجليه فصار يحاول الزحف و فاضت عيناه بالحزن و امتلكتك الشفقة به وأنت تنظر إلى فتوة بشرته و طفولة ملامحه ، التقطت بندقيته .. كان جاثيا

يرفع يديه إلى أقصى عندما وصلت إليه آخذت مخازن الذخيرة من جعبة صدره و همست : ابق كما أنت .. لا تتحرك ستنجو ، خطوت بجانبه و مضيت متقدما ، لم تكن قد قطعت مسافة كبيرة حتى انطلقت الطلقة خلفك ، كان أحد رفاقك قد أجهز عليه لم يكن من وقت لديك ، لكنك عدت لتلّمه بينما انتفض قليلا قبل أن يهمد ، ثغره افترَّ عن أسنان موشاة بالدم ، لم تكن تعرف إن كان يبتسم أم إن آلامه صنعت تكشيرة خلتها ابتسامة صار ميتا عندما قلت لقاتله : كان اعزل ... اعزلاااااااً لم تعرف لماذا لم تجد في وجهه سمة العدو كانت سماؤك قاسية وصلبة حينها و قد تدثرت بالغبار و بظاهر كفك مسحت الزبد الذي طفر على شفتيك ... تراجعت أعطيت أمر التراجع و الانسحاب ثم لم تحدث صوتا ، كانت عيناك مظلمتان لكنك استطعت أن ترى إلى عُقاب يحوّم في الجو ثم يذهب في دوائر كبيرة تتسع وتتسع حتى آخر المدى .

المشهد نهب برودة أعصابك ،مرّ هواء رمادي أنبت في عينيك نظرة زجاجية جعل نعاسك يفر و عدت إلى الأستاذ الذي أمضى جل حياته وهو يتكلم(أصلا شغلته) و رحت تحسب الساعات التي وقف فيها أمام تلاميذه و عدد الكلمات التي يمكن أن يلفظها في الساعة الواحدة ، بدا لك الرقم هائلاً لا يصدق و قلت في نفسك هذا الرجل أمضى حياته لا يفعل سوى الكلام ... ما الذي يرغمك على التذكر الآن ما الذي يشد خيط الذاكرة لديك لماذا تستحضر لحظات حياتك كمن يستلقي على فراش الموت ، هل فراش الثلج هذا هو كفن موتك ، و أنت ترمق إلى البياض بينما تشق طريقك خارج البيت صباحاً تساءلت : ماذا لو كنتُ ميتاً ؟؟؟ و أضفت ربما أنت الآن في برزخ أبيض.

قبضتَ سلاحكَ ، تحسستَ برودة المعدن ، هو ذا وجه الثلج الذي تزجج يمنحك فرصة التقدم أسرع و أتاك وجه (ف) ، كان غائرا مخنوقا و كنت تزحف نحو صورتها ، لبرهة جفَّ وجهها في ذاكرتك هِمتَ على وجهك محاولاً استرجاع ملامحها و بحثت في جيوبك عن محفظتك ، أفرغت محتوياتها على وجه الثلج لتعثر على صورتها : أنا متأكد من أنها هنا ، دون جدوى .. أعياك ألّا تجد صورة لها و فكرت أن الناس ربما يحتفظون بصورهم لمناسبات كهذه وكم أننا نروي شجرة الذاكرة بماء صورنا و عندما ينضب الماء فإن أغصان زماننا تتقصف و يهدمها البلى .

قلت لنفسك : أنت... وحدك من تركهم يفعلون بها ما فعلوا كان بإمكانك أخذها و الفرار بها ... من هم ؟؟؟ ... إنه واحد فقط واحد .. زوجها .. قاتلها - هذا ما أخبرتك الجريدة - قطّع أوصالها ثم فصل رأسها و تركها ممزقة لطيور البر .. رحت تتخيل الآلام التي حملتها و هي تمضي إلى الموت و أطلقت خوارا خشنا كثور و ردد وادي الحافة بعمق مجراه صدى صراخك ثم تلاشى على البعد ... قرصك جرح رأسك .. قرض جلدة رأسك و كواك بسيخ الألم الذي عبر عينك اليسرى و امتد في عمق رأسك لاوياً عنقك .. ما الذي دار حتى الآن لتجد نفسك ملقى على أرض صارت غريبة عنك على الرغم من أنك قطفت تفاح بساتينها ، حضنك الجليد و أنت تحاول أن تصرخ باسمها أي بلاهة أيمكن أن تصرخ فااااااااااء ... أن تنادي حرفاً و كنت تحاول استنشاق هواء استعصى على رئتيك و رحت تشخر كحيوان ذبيح .

رأيت الرياح تهب من العدم ، تستدير نحو الجهة التي خلت أنها قادمة منها و كنت ترى فوق المدى قاربا ينشر شراعا عبأه الهواء ويمضي ببطء نحو خط الأفق .

مع ذلك ظل صباحك يقطّع أشلاء صور متراكبة ، كنت تحس بأنها من يعصر جرحك ويأخذك على مهلٍ نحو الهذيان . عند بزوغ الشمس سرى فيك دفء ناعم و رأيت نفسك وأنت تتهادى في سهل مكشوف ، لم يعد لديك أشياء كثيرة لتخسرها ، لكن الأمر لم يكن يعنيك وحدك ، و قلت لنفسك أن هذه الحرب ستنتهي عاجلا أم آجلا أكنت هنا أم كنت هناك لكن خرابها لن ينتهي أبدا يا للخسارات ! الإنسان يصنع حرباً متوسماً السلام .. كنت تعتقد أن عليك بناء شيء ما و لتفعل ذلك عليك أن تحطم أشياء وأشياء و قد مضت الشهور تلو الأخرى.. أشياء تحطمت فيك ... معاني كثيرة اندثرت في أعماقك لكنك حتى الآن تجهل لما يبدو البناء عصيّاً على الهدم . أردت أن تناقش الأستاذ في ذلك ، ربما هو جالس الآن في بيته يحيط نفسه بهالة مثقف محايد و يشرح لمجموعة من زواره .... لو عملتم كذا لكان كذا ، لقد قلنا ذلك منذ البداية و بتاريخ كذا لو استجابت الحكومة لنا ... لفعلنا كذا .

كرهت الأستاذ في الوقت الذي لملمت نفسك ، انحرفت عن برودة الجليد و بدأت تتحرك نحو الأشجار كانت الأنحاء تستحم بالضوء عندها ، و على عكس ما اعتقدت فإنك تمعن الآن في خطوك الثقيل البطيء خوفا من الانزلاق ثم تميل إلى أحد الجدران فتزق بولك هناك و أنت حبيس الأفق الذي تجلبه إلى عينيك .

كان الأولاد يلعبون في الساحة الخلفية ، يتصايحون ، يصرّون على الاختباء من بعضهم و كنت تقترب مع ثلاثة من رفاقك عدنان إلى يسارك يشعّث شعر بنت تقف على الحياد ثم التففتم نحو المدخل كانت واجهة كنيسة مزينة برقوش على الجدران و عبر سمعك خرير الماء ، ثمة عين محبوسة بالاسمنت ، فمها ماسورة يتدفق الماء منها إلى حوض صغير ، شربتم حتى الارتواء و عبأتم (مطراتكم) ثم غسلتم وجوهكم قبل أن يتناهى إليكم صوت (الحوامات) ، تعالت صرخات الأطفال و رحتم تلمونهم من الباحة فوجدتم (وسيلة) تفتح لكم الباب وتقودكم سريعا نحو القبو و كانت الصواريخ في إثركم ، أعماك الغبار الذي تصاعد بعد أن تهدم قسم من السقف فأغلق مدخل القبو ، تعالى سعالكم هناك و زحفت كي تطمئن على الأولاد و رأيت إلى الجدران وهي تتنفس شروخا عاموديه و خلت أن البناء لن يصمد أكثر ، سراج الأخت (وسيلة) تدحرج أمامها وخمد دفعة واحدة أما هي فذهبت إلى الإغماء صرخت بأعلى صوتك : عدنااااان و تابعت زحفك نحوها ، دوي أذنيك أعجزك عن الوقوف ، غسلت وجهها بماء (المطرة) فرأيتها تُحّركُ جفنيها ثم تَعب هواء أغبر ، تفقدت جسدها فوجدتها سليمة ثم تركتها وتابعت ، صار بإمكانك الوقوف فاستندت إلى العامود الأسمنتي في المنتصف و عدت تصيح بعدنان ، كان أمامك وأخبرك أن الجميع بخير فعُدت أدراجك إلى الأخت بعد أن طلبت من رفاقك أن يسقوا الأطفال حتى يزول هلعهم و وجدتها ترهن رأسها لجدار خشن و تستقبل خيط ضوء جانبي مُحَمّل بذرات الغبار التي تسبح في الفراغ فتبدو كأنها تشاركم الحياة هناك .. وتوالت الصواريخ ، كان البناء يتهدم فوقكم كان عليك أن تفرغ قلبك هناك ، تضم بكاء الأطفال تحت جناحيك و تخلع عينيك من محجريهما حتى يتسنى لكم عبور الليل إلى الصباح وعجزت

... عجزت أن تفعل ما فعلته المرأة في قبو المدرسة الثانوية ، هب نسيم ناعم ذلك الصباح حمل إليك رائحة الحرائق وضوء شحيح إلى الملجأ ، بعد أن أزلتم الركام الذي سد مدخل القبو غمركم نور الشمس كانت واجهة الكنيسة قد دمرت تماما و رأيت إلى الرقوش التي استندت إلى الأرض و خطوت فوق الدمار عابرا الغرف حتى رأيتها هناك ، كانت النسائم تقلّب نهايات الكتب المحترقة ، سرت إليها وأنت تجيل نظرك في الكتب التي غمرها الغبار لم تصدق في البداية لكنك عرفتها من الغلاف (تاييس .. أناتول فرانس) نفس الكتاب نفس الطبعة الخضراء نفس الصفحات القليلة ، أسرك الكتاب إليه وقادك إلى ساحة سعد الله الجابري يا إلهي..؟ قلت ؛ الكتب كذلك مثل أشجار الزيتون لا فرق بينها هنا وهناك .. الكتب كتب . علا صوتك.. في اللحظة التي وصل أهل الأولاد يبحثون عنهم أخبروك أن ليلهم كان عصيبا فأخبرتهم أن جميع الأولاد بخير وأرشدتهم إليهم حيث وسيلة تغسل وجوههم وتنفض الغبار عن ثيابهم ، ربما لأنها أيضا مصنوعة من الأشجار استرسلت في تأملك و جلست تنقّب ذكرياتك مع الصفحات على مهل . كنت تعلم أن مأمون لا يجيد القراءة لكنه سرعان ما بدأ يلم الكتب ثم يعيد رصفها بجانب الحائط الوحيد الذي بقي واقفا ؛ ما الذي دفعه إلى ذلك ؟ كانت دهشتك غامرة .. ربما أحس ساعتها أن فيها الحل لمشكلات حياتكم ، غاية الصعوبة أن يدرك مقاتل هذا اعتقدت أن مأمون أدرك ذلك . و هممتم إليه تفعلون نفس الشيء وكتابك لم يفارق يدك ، كانت الكتب ما غسل روحك آنذاك على الرغم من انك اغتسلت ورفاقك ثانية بماء العين ، أزلت الغبار الذي تراكم على الكتاب ثم أعدته إلى مكانه بين الكتب ثم هممتم بالرحيل إلا أن وسيلة استوقفتك ، تقدمت نحوك بنظرتها الحالمة و يديها خلف شعرها ، ستغادر السلسلة الذهبية الموسومة بالصليب عنقها

و تمضي نحو يدك : خذها ستحتاج إليها ! ! قالت لك و كانت الوحشة تقف عارمة عند المدخل ، أردت أن تطلب الرواية وكنت تعلم أنها لن تمانع لكنك لم تفعل .. ما الذي أخرك عن ذلك .. لم تكن تعرف ، أعدت السلسلة : الأولاد أحق بها .

لم يكن للطلقات جهة محددة هذه المرّة ، خلتها تطوقك من كل الجهات ، كان ذلك قبيل الظهر ، سقطت غيوم داكنة عبأت الجو بالوجوم و رحت تنظر إلى البياض من حولك و كأن شيئا ما سيحدث عاصفة ستنتزعك من أرض وتلقي بك في الجو فتطير و تنظر إلى الأسفل لترى الأشياء وهي تدور و تدور و لم تكن تعلم أن رأسك هو الذي راح يدور ، ضيعتك الجهات أم أنك من ضيّعها و تزاحمت الطلقات وهي تجرح صفو النهار و صرت تعيد تركيب المشهد ، تذكرت رفاقك بينما تنقل بصرك فيما بينهم و كأنك تعدهم ، كنت باردا و منهكا حد الموت و حدست بأنهم بدؤوا تنفيذَ خطة انسحابهم كانت الخطة أن يتناثروا نحو القرى ثم يدخلوا المدينة في نقطة اللقاء الثانية ثم يغادروها تباعا ، هم الآن متناثرون في البياض عرفت ذلك من أصوات المعارك التي اندلعت في الجهات و كنت تلوذ بعزلة الوضوح ، قلت لنفسك : أصل خط انسحابهم نحو الشمال و انتظر هناك. بينما الطلقات تحدث ثقوبا في روحك و أنت تدنو من شجرة سنديان حمل الهواء رائحتها إليك راقت لك أوراقها المسننة و خضرتها الداكنة و فكرت أن بإمكانك أن تحيلها وقتما تشاء إلى نار و حدست أن خط سيرهم سيمر من هنا ، صار جسمك يرتجف و لم يستطع حماس الطلقات أن يلهبك فيأخذك نحو الدفء ، تسارعت دقات قلبك و تكاثف هواء صدرك أمامك بلون الرماد و اندغمت أفكارك و نبتت في عينيك نظرة المرض ، ثمة ما يعاند روحك و يقسرها على الرسو في أرض صلبه ، لم تعد تغريك رخاوة

هذا البياض ، مع ذلك استلقيت على الفراش الأبيض تنظر إلى السماء و تذكرتَ النهر ، الليونة قادتك إليه درجت سنوات عمرك الأولى بجانب نهر دون أن تراه دون أن يعني لك شيئا لتكتشف الآن أنه كان يجري في أعماقك طيلة هذه السنوات و وحده النهر دون سواه ما كان يفصمك إلى ناحيتين

لم تكن قد أفقت بعد عندما قشرت لحافك و استويت جالساً تنقل بصرك في أنحاء الغرفة كانت الشمس قد فردت نهارا جديدا و اندلق نورها في أنحاء البيت تتأمل زخارف الجدران لتتأكد أنك قد غادرت الحلم و رأيت إلى رفاقك بينما يحيلون تعب يومهم السابق إلى أنفاس منتظمة ، أردت أن تنهض تلقي نظرة إلى فناء البيت حيث تَسَلَقتْ نباتاته الخضراء الجدران و أعادت الحياة إلى خرابه المحيط إلّا أنك تراخيت بكسل و استلقيت ثانية مانحا عينيك لعوارض السقف الخشبية لتنتقل بين سواد العفن الذي يغلفها ودوائر الرطوبة التي تحيط بها ، تأملت فيها مليا و فكرت بالأمان الذي منحته لقاطني البيت و تراختْ أفكارك بأناة .. امتدتْ ... تطاولتْ .. تقاطعتْ كتقاطع أعواد القصب في ذات السقف و تساءلت عن الزمن الذي يمكن أن يمتد بعد حتى ينخسف تراب السقف ، كانت فكرة المبيت هنا لعدنان قال إن الطيران لن يفكر بقصف بيوت من هذا النوع لأنهم يدركون بأنه من الجنون الاحتماء بهكذا نوع من البيوت لحظة الغارات ، تواثبت أنفاسك وضاق صدرك و وقفت دفعة واحدة لم توقظ أحدا من رفاقك فتحت الباب وعبرت نحو الخابية ، غمرت كوباً في الماء البارد ، شربت قليلا وغسلت وجهك بما تبقى و نشفته بكم لباسك العسكري و حملتك خطواتك تحت تعريشة عنب يابسة ، جلست على بساط مقلّم مشلوح على مصطبة صغيرة و بينما تراقب أعمدة الضوء وهي تقلص مساحة الظل امتد صوتك ناعما رخيما مستويا و كأنه آت من عالم آخر : عدنااااان أيقظ الشباب ولنعد للرحيل .

لم يكن نداؤك مزعجا فقد بدا أكثر كنداء استغاثة منه كنداء آخر إلا أنه أيقظ الجميع و هرع عدنان إليك قبل أن يزيح عن وجهه رغوة النوم اطمأن على أنك بخير و قفل مسرعا ، كنت تحس أن عدنان في تلك اللحظة أقرب إليك من زيدون ، عندما صار الجميع جاهزون أجهزت عليكم الطائرات ، تصغي لنبض قلبك و قد اختنق صباحك بالدخان ... تتأكد أنك ما تزال حيا ... يغمرك الصراخ ثم السعال .. تفتح عينيك غمامة هائلة من التراب والغبار وعلى الرغم من ذلك يعلق صوت الطائرة في أذنيك كذبابة لزجة ، يكتسحك ارتعاش بارد وأنت تحاول نفض الغبار عنك والنهوض و تنخسف ركبتاك وأنت ترى أجساد رفاقك عالقة على الجدران ، تستيقظ في أحشائك رغبة بالتقيؤ و ينهض رعبك باردا ينسل من جسمك على هيئة قطرات تزخ من بدنك.

أربعة فقط عدنان و زيدون ومحمد بالإضافة إليك نجوتم و على الرغم من جراحكم التي تثخن أجسادكم جمعتم ما تبقى منهم و احتفرتم لها قبراً جماعياً... واريتم أرواحكم هناك .

و وجدتهم حولك ساعتها و كنت انتبهت للتو لشرخ يحز رأس عدنان فرحت تنظفه بالماء ثم تلفه بضمادة قماشية كيفما كان ، كانوا أكثر من عشرين ملتحيا يتلفعون بلباس أسود نظيف أحدهم تقدم منك مادا إليك قطع الضماد الأبيض و بعض الدواء فعدت إلى عدنان و انهمكت ثانية بمداواته و كان الهواء لا يزال يرسل إليك رائحة الدخان ممتزجا بشواء رفاقك ...

- قد ينفعك هذا ... لكن صدقني لن يفيدك شيء غيري

كان الحزن قد أنهك روحك و دوي الانفجار يغلق أبواب أذنيك بالإضافة إلى أنك فقدت أيّة رغبة بالكلام ، نقّلت بصرك فاحصاً إياه و عدت ترش البودرة على جرح عدنان مع أنك قذفت السؤال في وجهه دون أن تلتفت إليه

- ماذا تريد

- أنت تعرف

- لا اعرف شيئا

- انضم إلي

- انضموا أنتم إلينا ... كان ردك حاضراً

جال بنظره نحو رفاقه كأنه غير مصدّقٍ

- نحن سننضم إليكم ... انتم أربعة

- نحن البلد .... انتم جماعة

- أنت أحمق

زيدون الذي كان مستلقيا أثناء ذلك انتفض واقفا ملقما بارودته وتبعه عدنان ومحمد فاندفع الآخرون و تحلّقوكم شاهرين أسلحتهم .

أوقفتَ الجميع بحركة من يدك ، إذ كاد الموقف أن ينفجر أما هو فتناول عود شوفان و راح يلوكه بينما يستدير

- هذه لم تعد أرضكم ... معك ثلاثة أيام

- هذه أرضنا

كان الغضب قد استبد به و أفقده مسحة الهدوء الخادعة التي يغلف نفسه بها فاستدار نحوك و صرخ بوجهك بينما يده تشير إلى الأرض

- هذه إمارتي

ردد ذلك ثم قفل عائدا من حيث أتى بينما ألقى خلفه بضع كلمات.

- ثلاثة أيام .. ثلاثة أيام فقط

وصلت الجملة إليك مشرذمة ؟ أم أنها روحك التي يتمازقها الألم ؟ وأنت وسط هذا العجاج تحاول ترميم أنفاسك الغاضبة .

من رعب إلى رعب ومن فقد إلى فقد .. لم يعد لديك ما يكفي حتى من الأرض و كنت قد عاهدت نفسك إلا تطلق رصاصة نحو آخر يقارع هذا الظلم .. و إن فعلت فأنت في دوامة لن تستطيع الخروج منها ، حتى الأفكار ضاقت بك الآن وأنت تنظر لمن بقي من رجالك ... ما الذي يمكن أن تفعل بعدد كهذا و بأرض لم تعد تطيقك على وجهها .. ألم يكن من الأفضل لو دفنت هنا مع شهدائك ... محمد قال :

- من دلهم على مكاننا .. أصدر ذلك ساهما ثم أردف : الذي دلنا على المكان

- ماذا تقصد

أجاب عدنان بغضب

- اخرسوا جميعا ... هدر صوتك : لم يعد لدينا إلا (كتف الجبل) .

توقفت فجأة خيّل إليك انك رأيت هذه الشجرة من قبل ، شجرة وحيدة أعيتها الريح فأمالت جذعها و اتكأت ببعض أغصانها على الأرض . رحت تدور حولها ثم ركضت حتى باغتتك آثار حذائك على الثلج : لقد مررت من هنا حقا .

جثوت على ركبة ونصف كنت تجلب المدى لعينيك ريثما تلتقط أنفاسك ، لم تجد سوى الصمت الراسخ ، لهاثك وحده ما يتعالى و بلحظة غمرك الغيم فوقفت على قدميك ، كان الثلج رخوا فجفلت أن تزق رجلك فتسقط ، جامدا صرت ، لم يبق في سمت رؤيتك إلا هلامٌ رماديٌ ، رابتك حركة في الخلف فالتفت مذعورا ، يقف أمامك على بضعة أمتار بوبره الرمادي المبلل النظيف و عيناه الحارّتان كجمرة " لن تجري أمامه " و لن تتركه يهاجمك ، يدك تتحسس خشب البندقية بينما الأشجار ترسل حفيفا ناعما و كنت ترى لهاثه الذي تطاول أمامه بخارا ، اقترب قليلا يعرض عليك تكشيرة قاتلة ، أمال جسمه قليلا فصار بمواجهتك مستعدا للانقضاض عليك . وأنت تثبته في مدى رؤيتك كانت سبابتك تتسلل إلى الزناد .. وصلك صوت لهاثه .. كانت قوائمه غارقة في الثلج و بدا لك للحظة أنه يحاول الزحف .. خلا رأسك من الأفكار و لبثت هناك دون حراك ، كأنه فوجئ بك أيضا ثم سرعان ما وثب و أكمل طريقه نحو مسيل الماء دون أن يبدي أنه جفل منك حتى .

كانت الأشجار تلقي ظلالا سوداء على صفحة البياض و أنت تتحرر من وزنك فبدوت خفيفا تحف سطح الثلج كالريشة .. حتى سمعت الطلقات ... الطلقات مرة أخرى تشق الصمت الرطب للمنحدرات ثم يتبع ذلك نشيج حارق لحيوان و عواء متقطع إثر الألم . كانوا ينتشرون فوق

كتف الوادي ، البعض منهم كان يتسلى بإطلاق النار نحو الذئب و آخرون يتمركزون في نفس المكان الذي احتواك بالأمس يحدث الآن أنكم تبادلتم الأدوار لماذا الأدوار قلت لنفسك ربما المواقع فحسب ، الآن تفهم أنك في مرماهم مثلما هم في مرماك ، لكن ربما تحتاج جيشا حتى تهزمهم ، بدا لك واضحاً خطأ نظريتك و صحتها بنفس الآن و فكرت ثانية بالأمكنة الآن باستطاعتك قتل أكثريتهم و ربما قتلوك .. وأنت تحاور روحك خلصت إلى نتيجة أن الحروب تحيل جميع الناس إلى ضحايا .. ارتعدت أوصالك .. لم يعد لك ساقان تحملانك ، صار جسدك ثقيلا .. لم تكن خائفا منهم بقدر ما دهمتك فكرة أن الله أرسل الذئب ليحذرك ، ما الذي سيحدث لو أنك أطلقت نحوه ؟ حجبتك أشجار البلوط انسللت رويدا إلى الخلف ، بدا لك الموت ساعتها في غير أوانه تريد فقط أن تتأكد أن رفاقك بخير .. أربكك استنتاجك و أنت تستعيد فطرة قيادتك : يتمركزون هنا كي يعيقوا انسحاب بعض رجالك نحو الشمال ربما أنت تطل على النافذة الوحيدة لنجاتهم و كمنت في مكانك تنتظر .

جذبتك إليها فجأة: كانت تجلس على حافة سرير ذي ملاءة بيضاء و رأيت إلى ركبتيها مدورتين مكتنزتين ... شعرها يمتد طويلا نصفه إلى الخلف و الباقي إلى الأمام و نزلت بعينيك صوب يديها و هي تهدل حمالة قميص نومها لينشق عن بياض صدرها ، دار بك بياضها .. أذهلك فغرست عينيك هناك ، ثم استلقت على السرير بحركة مغناجة و حبوت نحو ركبتيها ألصقت راحتي يديك عليها ، كانت باردة كالجليد ثم وقفت فزعا و دنوت منها فوجدتها بلا رأس.. حاولت أن تصرخ لكن

صوتك اختفى .. صار نشيجا خافتا .. كانت راحة يدك ممددة على الثلج .. هذا الثلج صار فيك داءً أكثر منه دواء .. صار وضوحه تيها .... يعطف ذاكرتك إلى أماكن لم تعد صالحة أبدا " كرهت أن ترى (ف) بهذا الشكل و كنت على يقين بأنها لم تكن تعني لك ذلك أبدا .. بتَّ مغموماً و وجدت نهارك إلى أفول ، صار الغسق زهريا و بدأت الأشجار التي تحضنك تميل إلى حلكة رغم البياض . تناهت إليك أصواتهم و حاولت أن تلمح أحدا منهم دون جدوى، تبدى لك ساعتها أنهم قفلوا عائدين . سالت العتمة و أنت تفكر بالذئب هل أردوه حقا..سرت البرودة فيك فجرعت قليلا من النبيذ ، فركت يديك ونفخت فيهما بعضا من حرارة جوفك قبل أن تغادر مكمنك ثم أخذت بضعة خطوات ماكرة وأنت ترنو لصريف الثلج يتكثف أسفل قدميك ، ثم تقدمت مديدا لجهة الغرب صار الجبل صامتا الآن و أنت تنقّل بصرك في المدى المعتم كانت الأشجار متعبة من أحمالها و ظهرت لك البيوت متساوية فلن تستطع أن تميز بيتا عن آخر ، سئمت من خلع أبواب البيوت ، عبرت بعد أن طفا على سطح خيالك البيت الذي ستلجه ليتسنى لك البقاء : هو ذا ! قلت لنفسك .. لا يزال العالم عالقاً فيك ، ضمتك جدران غرفة جديدة فوقفت ساهما تتأمل في الفراغ ثم فتحت النافذة لترى السماء فعبرت نحوك نسائم رخوة ثم سخرت من قلة عقلك ، إن كانت سماؤك مقمرة فإن صباحك سيكون جليديا أيضا و إن حفلت بالغيوم فهذا يعني أن نهارك سيكون لافحا ..أخطرت نفسك عندها و أنت تبحث عن الصحو .. أين ستجد الصحو و أنت كلما فتحت نافذة تسفح وجهك نثارات الثلج .. رشقت المدى المعتم بنظرة طائشة قبل أن تغلق

النافذة و تشغل نفسك بالبحث عن أود الحياة. انسرب إليك مشهد(ف) فنهب حماسك للأكل و أرخى مفاصل جسدك و ندت عنك نظرة تائهة تضرب في زوايا العتم.. لم تعرف ما الذي يؤرقك الآن العري الذي بدت فيه أم رأسها المقطوع و عجبت كيف اجتمع لديك كلاهما.

كنت تلتحف الأغطية الدافئة عندما كشطها أباك عنك :

ـ مثل العرايس .

قال لك ، ثم أردف :

ـ صار الظهر.. قوم يا ولد .

أحسست أن ثمة من يقاسمك ليل الغرفة .. من الزاوية العميقة سمعت صوت هدهدتها ثانية كانت ترنم نفس الأغنية التي غنتها المرأة للأطفال في قبو المدرسة ... وصلك همس غنائها و استعدت كامل الصورة و أنت تتمدد أسفل غيوم الوسن " وشوشة ثلاثة من رفاقك و شخير رجل عجوز نسي رعد القصف و ألقى برأسه على صدره و مط شفته السفلى غارقاً في التعب ، يد زوجته امتدت إليه تحاول تعديل جلسته ، رائحة الأنفاس أثقلت الهواء ، امرأة تسعل ثم تتمخط .

قبل أن تأتي إلى هنا مررت بها

ـ جيت ودعك .

قلت لها .

رنت إليك طويلا ،و كأن سؤالك قد مضى بها إلى بلاد بعيدة .

- لا تروح .. قالت لك ثم أردفت :

- أنت مثل ابني .. لا تروح

قبّلت يديها ثم باغتك صمتها ، ربما ألجمها حزنها أو أنها لمحت إصرار عينيك فآلت إلى الصمت و أنت تحاول أن تلتقط و لو بضعة حروف منها. لم تبك ، اكتفت بأن شدّت على يديك بينما يهزك فراغ مثل قصب الريح . خفت أن تبدو صغيراً أمامها.. أن ينهمر دمعك دفعة واحدة فألقيت ظهرك في وجهها و وليت ماداً خطوك نحو البرية .. وكنت حقا تريد أن تكون صغيراً حينها .. تنام في حجرها ، ترسل أصابعها في شعرك و تغني لك.. تغني حتى يأخذك النوم .

تسهم في العتمة ترزح تحت جبل الخوف ، ترى أباك و هو يدير جفنات العنب أمام المحراث مثل كائن يخرج من لوحة ، كان ملطخاً بألوان الخريف ، ما من فارق بين صفرة وجهه و أوراق العنب التي يلاطفها الهواء فيتناهى إليك حفيفها ، أم هي كائنات العتمة في ليل غرفتك .. أصغيت .. نقط مياه تتقاطر من السقف و لمحتها سوداء ... سوداء .. هذا البياض يقطر سواداً لا ينتهي مثله مثل ذاكرتك لا تني تنزف بسواد حياتك التي مضت ... كنت تقول إنك تحب فصل الشتاء أكثر من باقي الفصول لكن هذه المتاهة جعلتك تكره كل الفصول .. لا يزال قاتلك طليقا يا(ف) .

عندما شارف ليلك على الانتصاف تحرك الهواء ، سعى إليك من مفاصل النوافذ لم تعرف حينها ما الذي أيقظك ؟ حفيف الرياح الباردة أم أوجاع قدميك التي استفاقت للتو ؛ هذا إذا كنت نائما حقا .

خلعت حذاءك فتسلخت قروح التجمد بين أصابع رجلك اليمنى .. فتحت الباب ، رأيت إلى الليل المطبق في الخارج و انسللت على ضوء عينيك نحو موقد الغاز في الغرفة المجاورة أوقدت أسفل القدر ، غسلت قدميك بالماء الدافئ و كويت قروحهما بالكحول .. الآن ثمة ما يعيق تقدمك أكثر و كنت تحدس أنهم غداً سيرابطون في نفس المكان ، ربما استطعت أن تساعد رفاقك في لحظات عسيرة .

سال جسدك على السرير ، كنت مرهقاً لكن دماغك كان يُراكم جغرافيا الأيام الفائتة و يحاول أن يعيد ترتيب الأشياء للتحول إلى خطة انسحاب ناجحة، و تأكد لديك اعتقاد بأن ساعة الصفر صارت قريبة وان معركتك الحقيقية صارت وشيكة . خفق قلبك بشدة ...

كنت وعدنان تعبران تلال (الساعوف) وتنزلان مسرعين نحو أراضي (بير الزيت) عندما روّعك منظر فلاح، هناك رأيته يكدن بغلا و يشد عليه محراثا رومانيا ، بدا الفلاح وكأنه بوغت بكما .. راح يحدق في الأسلحة التي تحملان تارة و نحو كيس من القمح تارة أخرى .. يبدو انه خاف على الكيس أكثر . زال خوفه عندما تلقى سلامكما .. ألقيت سلاحك وطلبت إليه القليل من الماء .. اكتفى بان أشار بيده نحو صخرة قبعت في ظلها عبوة بلاستيكية مشرنقة بخيش رطب ..

بعد أن شربت الماء سألته

- ماذا ستفعل

- سأزرع

لم تضف إجابته شيئا لك و أنت ابن فلاح .. لكن صوته أتى من مكان قصي من أعمق أعماقه .. الكلمة الوحيدة التي نطق بها بدت ناعمة متهدلة و كأنها رفعتك من مكانك و ألقت بك في عالم آخر ، عرقّته بنفسك و على عدنان بدا مسرورا بعدنان أكثر منك بينما تمضي نحو كيس القمح ، غمرت راحتيك في الحبيبات و رادفتها نحو ثوبك و مددت خطوك في السهل : أنا سأبذر قلت و كنت قد رسمت في رأسك المساحة التي يمكن أن يفلحها بغل و رجل بمثل هذا العمر ، أرسلت البذور في الهواء و سَمعُك يلتقط إيقاع سقوطها على الأرض مثل أغنية .. فكرت بالحبيبات أثناء ذلك لابد أنها مسرورة الآن و هي تنتظر أن يغمرها الثرى ربما لأنها ستكون في مكانها الطبيعي أما أنت فلم تعد تعرف نفسك و إلا فما الذي يدفعك لتكون الآن فلاحا أكثر منك مقاتلا.

وكان قد استجاب لفزعتك فراح محراثه يغور في التراب يشق وجه الأرض و يأخذها إلى حمرة داكنة ، ثمة عصافير تشاغبك ، تحط فتتناول بعض الحب ثم تمضي هاربة و كنت تستجيب لزقزقتها في السهل فتنبت على شفتيك أغنيات خافتة، ثم نظرت إلى عدنان كان دخان موقده يتعالى فيصبغ إبريق الشاي بالأسود لم ترَ نفسك إلا وأنت تمسك (الكابوسة) ، تضغط فتغور السكة في الأرض ، تفلحها ، أرضك بحاجة لفلاحة أكثر، فلاحة تغلغل نور الشمس في عمقها فتجتث أوراقها اليابسة و تنظف أدرانها ، ندت عنك زفرة متقطعة فانحرف الثلم لكنك شددت الرسن .. كنت مأخوذا بعصافير السهل فقط ، كذبت على نفسك .

قبيل الظهيرة أنهيت الجزء الذي بذرت كانت حرارة الشمس قد اشتدت و لم يكن من ظل تفيؤون إليه و وجدت الفلاح يدنو منك يبعثر الكلمات في السهل ، كنت تحسها كلمات فارغة ، لأنك لم تكن تفهمها قلت له

بينما يمسح عرق البغل بخامة بيضاء .. وجهتي نحو بير الزيت ، لم يجب بل أشار بيده و خلّفت بعض الخطوات عندما طقت الكلمة في أذنك .. كان يتمتم : لجهنم . واستحال السهل بينكما صمتاً .. لم يترك لك شيئا لتقول .. تمنيت ساعتها وأنت ترمق السهل لو انك دفنته و كلمته مع القمح الذي زرعته هناك . قال عدنان حينها و كأنه حدس بما تفكر : لا تغضب

ـ غلطنا شي

ـ كلام لا بيودي ولا بيجيب .. لا تزعل

ـ ما فهمت .. يخرب بيتو من الصبح و نحنا عم نساعدو

ـ لو ضويت أصابعك ... لا الأفعال ولا الكلمات تثمر هذا الوقت

ـ نحنا زرعنا قمح ... لازم نحصد قمح

ـ يا أخي افهم ... قمحه تلوث بالشيطان .. أنت بالنسبة الو كافر .. شو نسيت

تتأكد من قصد عدنان بالنسبة للكلمات .. تحس بأن لا فائدة من الكلمات لا فائدة من كل شيء ، كان الصمت رفيقكما وأنتما تغادران و كانت حصى السهل تغور تحت نعالكما و أنتما تعبران يوماً برياً مالحاً .

بدا ذهنك مبعثراً و أنت تستقبل يوماً جديداً ، أوجاع أصابع قدمك هدأت، انسل ضوء خافت عبر النافذة ، فتحتَ الباب بدا صباحك عكراً إذ تدحرجت الغيوم فوق الثلج تطاردها رياح غربية خفيفة ، عاودتك ذاكرة

رجل السهل .. سُمَّ بدنك ، حفنت ثلجاً ناعماً أذابته حرارة وجهك و تجيل نظرك في المرآة تلمح إلى البقع الرمادية التي تناثرت على وجهك ، و تحاول أن تمسحها ظانا أنها بقايا أوحال لكن ملمسها الخشن والرائحة التي انبعثت منها أثناء ذلك جعلك تقلق لما يحدث لوجهك ودهمك سعار الجوع وأنت تمسحها بالكحول عندما لمحت بعضا من حبات البطاطا وقررت أنك ستسلقها ، أكلت بعضها ، ثم دسست الأخرى في جعبتك و شربت شاياً ساخناً و في اللحظة التي صرت فيها جاهزاً أتتك (ف) كانت مثل حديقة خضراء .. حقل قمح تميد به الريح .. مرة أخرى مغروس في البياض يجرح عينيك بهير الثلج و يضج رأسك بالأفكار .. تحاول أن تخبر نفسك شيئاً ، تغور الكلمات في عمقك ، تلفظ أنفاساً فاسدة و تتنسم هواء قاحلاً ، قرارك الوحيد أن تمضي إلى مكمنك و كنت قد رسوت إلى خطة وضعتها في زاوية من رأسك و مشيت تجر ظلك على الثلج ، تعثر في خطاك ، تعرج بسبب القروح التي استفاقت ، تتأمل عري أشجار التفاح لم تكن ترتعش ، كانت مثل مصطاف يتجول بملابس السباحة على شاطئ حار، جِزتَ بضع خطوات فوق أغصان مغطاة فأنّت تحت ثقلك ، تترنح .. صرت تمشي تطارد مسلكا ذا ثلج أقل عمقاً ، تسلم ظهرك للريح .. لندف تتهاطل ثم تتراكم على كتفيك و أنت تجيل رأسك في الجهات فتلسعك النثارات الباردة ..في أعماقك كنت تضحك .. مرة أخرى تنفلت منك الجهات ... آه كم تفلت الجهات منك ، لم تعد بحاجة إليها الآن .. أنت على يقين بأنك بحاجة إلى أحلام أكثر من حاجتك إلى الواقع و تخيلت نفسك وأنت تمارس الحياة في مملكة غامضة تحيا على الحكايات تشرب من ينابيعها وتعطش في فيافيها و الناس فيها كذلك لا يفعلون شيئا سوى

أنهم يسردون الحكايات ... حكايات من كل صوب الأشجار .. الأنهار .. البيوت .. حتى الأطفال يلعبون بالحكايات .. حتى في ذلك خفت كثيراً خفت أن يخطفوا مملكتك منك . وملت نحو الوادي ، كان ماؤه يجري مواظبا فوق الحصى ، راقك بريق الماء وهو ينحدر فوق حجارة سوداء لامعة و عجبت لبعض عروق خضراء تتكمش بالصخر وتميل مع الماء رغم هذا الزمهرير ، راودك شعور بأن هذه القفار البيضاء لا تعدو أكثر من حلم و أنك ما زلت في اللجاة ربما قتلتك تلك الأحجار .. الآن تطلق زفرات حجرية و ما زالت تبعثرك أفكار حجرية على الرغم من الليونة التي ترتع فيها ، صعدت نحو الحرش ، كبت أغصان البلوط نحو المرج ، بدت لك الشجيرات متعبة وباردة مثلك ، كذلك الريح مرهقة وهي تجول بين الشجيرات الغارقة بالظلال بالرغم من البياض الذي يوشحها ، قدّرت المسافة هناك و راجعت التفاصيل ، درت دورة كاملة ثم دخلت إلى مرصدك مموهاً بأغصان تشابكت حولك ، استطعت من هناك أن ترى الطريق الذي سيجلبهم إليك و رحت تسبر بعينيك أفقاً غامضاً فلا تعثر إلا على الضباب الذي امتزج بشرود الثلج الذي بدا لك أنه لن يتوقف و داخلك الشك بأنهم لن يأتوا في يوم كهذا .. أغمضت عينيك و غرقت في وجوم بارد ، صوت تنفسك أقرب لتنفس ريح الفلاة .. و تذكرت (ليال) .. أحقا تذكرتها أم انك تذكرت حديث أمك عنها .. جارتكم (ليال) أكثر الجارات قربا لقلب أمك .. فاحت رائحة حزنك الآن ، حزناً ممضّاً يقبض على روحك وأنت محاصر بضباب لا يزال يرافق هطل الثلج ..

قالت أمك إنك نطقت باسمها أولاً بعد أن قطعت الشارع إلى الضفة الأخرى حيث بيتها يقابل بيتكم .. ذهبت تطلب حبات السكر .. الآن

تتذكر وجهها .. لن يصدق أحد ذلك ، أحقاً تتذكر وجهها ؟ .. هذا ليس من حديث أمك .. أنت متأكد من ذلك ، ترى الآن سواد حاجبيها العريضين و بياض ابتسامتها و راحتيها الناعمتين .. قالت أمك أن الذعر الذي انتابها لحظة أضاعتك لم يوازه شيء سوى فرحها برؤيتك محمولا بين كفي (ليال) تطيّرك في الهواء بينما تزقزق كالعصفور ... ظلت أمك طوال حياتها تتحدث عن عبورك الشارع نحو ليال .. كانت لحظة قدرية بالنسبة لها ، يدخل السرور إلى قلبها و هي تستحضر صورة صديقتها التي غادرت (وجه الحجر) إلى (السهلة)قرية أهلها ، كانت (ليال) حاملاً عندما آب كل الجنود من الحرب إلا زوجها .. تتداخل الكلمات على لسان أمك عندما تتحدث عن (ليال) ، اسمها مثل زغرودة تعيش دائما في فمها ، فُقد زوجها بعد (6 تشرين) و انقطع أي خبر عنه .. أناس أكدوا لها أنهم رأوه بين الأسرى على التلفاز و آخرون اثبتوا خبر استشهاده .. ما الفائدة ... في كل الأحوال لم تعثر عليه .. لم يعد ولم تستطع أن تدفنه أو حتى تقيم له مراسم العزاء .. رفضت الزواج و قررت أن تعيش ما تبقى لها لولدها الذي تنسم هواء (السهلة) أولا .. أما أنت تقول أمك بقيت لمدة طويلة تغافلهم .. تقطع الشارع نحوها تجلس تحت شباكها وتطلب منها أن تعطيك (الحبّات) .

يعبق الهواء الآن برائحتها بينما ترقد في فراشك الثلجي محاطا بلوعتك و مأسورا لشريط حزنك الأول .. صرت غشيما مثل هذا الثلج .. تتدثر به دون أن تعرف من أين يأتي و إلى أين يمضي .

قبيل الظهر أوقفت السماء نزف بياضها وبدت لك الغيوم محبوسة خلف الأغصان بينما استلقيت على ظهرك و غبت في تأمل في اللحظة التي سيظهر أمامك كشيء خرافي .. فوجئ بك هو أيضا ... ذعر... قسمات أخرى استفاقت في وجهه لبرهة ثم جمدت في مكانها ، أنت كذلك أغمضت عينيك .. أجزاء من الثانية فصلت إبهامك عن زناد البندقية التي كانت ستطلق نحو عبد الله .. عبد الله الذي فتح ركبتيه للثلج وانزل حمل كتفيه ، كان زيدون جريحاً .. مدده على الثلج بينما يمضغ ألما طفا على وجهه .. فرّ اسمك خلل لهاثه ممزوجا بالهواء الذي تكاثف أمام فمه .. و أنت زحفت تحت أجمات البلوط ، عيناك تلتهمان مسافة بدت بلا لون .. حماسك طفا على جسمك قطرات من العرق ، صرت مبللاً بماء روحك و مثل شهقة مخنوقة لكمان أطلقت صرخة مكبوتة بدت أقرب إلى التنهد ثم طيّرت اسمه (عبد الله) .. عانقته .. ضممته إلى صدرك ، ضمّخت أنفك برائحة تعبه ثم هبطت إلى زيدون تقبل جبينه تتحسس أنفاسه الوئيدة .. كان مرهقاً .. متلاشياً .. و رحت تتحسس ثغرة غائرة أسفل كتفه الأيمن .. تأكدت أن جرحاً كهذا لن يودي به ؛ خاصة في جو بارد كهذا .. رويداً شق عينيه فبدا وجهه موسوماً بغموض كنت تلاحظه للمرة الأولى و شعّت على وجهه ابتسامة و رحت تتفقد المدى و اقتفيت بعينيك آثارهما فتأكدت أنه ما من دماء .. كتف الجبل عندها كان يمشط شعراً أبيضاً و يتمرى في السماء التي توقف هطلها و تلاحقت غيومها ماضية نحو الشرق .

سألت (عبد الله) عن رفاقك بينما تفرغ ما معك من طعام وضمادات و أدوية في جعبته ، أخبرك أن عدنان قد استشهد و أنهم حاولوا الانسحاب

ففوجئوا بالكمائن والحواجز التي نصبها الأهالي فاضطروا إلى التراجع و انقسموا إلى مجموعات قال لك: إنه لم يكن لديه وقتٌ للحزن فاحتفر ثلجاً قاسياً ليصنع رمساً لعدنان : كنت أحس ساعتها أن الثلج هناك كان اقسى من الصخر .. كان صخراً ابيض، أردف ..ثم وارى الجثة هناك.

ـ ارتاح !!

مضغ الكلمة في فمه مثل شوكة .. تتذكره الآن .. تتذكر عدنان .. يمتلكك الحزن .. يقوض أجزاءك دون أن يهدم ما تبقى من رجاحة عقلك ، أنت الآخر لم يكن لديك وقت للحزن .

ـ لا وقت لدينا . قلت له .. سيأتون عما قريب و قبل أن تنتظر جوابه رحت تشرح له ما أعددت و فصّلت له الطريق .. الأشجار .. العلامات التي ستقوده نحو (وجه الحجر) .. هناك ستجد من أقربائنا من يعتني بزيدون... أضفت و أنت في كل ذلك شظايا بفعل خبر عدنان تدور في الهواء الرطب تلملم أشياء الذاكرة التي تتلاعب بها الفوضى .. طيلة الوقت الذي أفلت منك رسمت سيناريوهات غريبة لموتك .. تخيلت كل شيء إلا هذا ... عدنان

بدا زيدون مرتاحا بعد أن بدّلت ضماداته وعالجت جرحه بالقليل من الكحول ، تغمره ثم تهصر وجهه براحتيك و تنظر عميقا في عينيه لبرهة ثم تتوارى به عن البكاء و في رأسك تراجيع صوت عدنان ، تزمّ شفتيك وأنت تمتد نحو صخر اللجاة و ترى إلى وجهه ثانية و قد أرسى فيه الألم غضوناً قاسية . قلت له : سامحني .. لم يجب كان ثمة خوف وحيرة تستفيق في عينيه لكنه أوصد باب الكلام و هو يحاول

النهوض ، استند ثانية إلى عبد الله و مضيا حسب الخطة التي وضعت ، ناديت عبد الله بعد أن قطع بضعة أمتار:

- عبدالله .. وداعتك

مدَّ خطواته دون أن يجب و ما زلت ترقب حجلهما حتى ابتعدا عن ناظريك .

رأيت أحدهم يحاول عبور الماء .. حتى الآن كل شيء يسير حسب توقعاتك .. أرديته قبل أن يجتاز الوادي فسقط واندلق دمه يصبغ صفحة الماء و حاول آخر أن يجتازه متجها نحوك إلا انه فوجئ برصاصاتك تتبعثر أمامه فقفل لكنه انتبه إلى موقعك فانخفض قليلا و أخفى نصفه خلف الصخور الموشحة بالثلج ، كنت تغادر مكمنك عندما لمحت يديه تعطي الإشارات للالتفاف حولك وتطويقك ، انفصلوا إلى قسمين .. كنت سعيداً حينها لأنك استطعت أن تبعد أنظارهم عن رفيقيك و أرسلت صلية نحو من بدا قائدهم فاختفى على إثرها خلف الصخور .. أطلقت ناحية اليمين ثم إلى اليسار،كنت تبعثر الطلقات حولهم ساخراً أما هم فأرسلوا نحوك قذيفة (بي سفن) .. عبرت أمامك ثم حلقت باتجاه السماء وانفجرت بعيدا و بدورك أرسلت بضع رصاصات فأصبت رجلي واحد منهم انخسف على الثلج وراح يولول ثم يشتم و اليد التي أعطت نحوك أمر الهجوم أمرت بالتراجع ، رأيتهم يسحبونه خلف الصخور ، تستطيع الآن أن تمضي بخطتك نحو النهاية ستصعد الرابية في الخلف ستنكشف لهم آثار قدميك فيقتفونها و تكشف سهلاً أمامك ، ستكمن لهم هناك و حين يتقدمون إلى العراء ستحصدهم .

فكرت لوهلة وأنت تحاول رسم ابتسامة فائضة على وجهك : ماذا لو فشلت ؟ .. ما الذي يعنيه كل هذا ؟؟؟ سألت بصوت باهت

صرت ترى الثلج ملاءة بيضاء كبيرة تغطي العالم .. تكفّن جسد عدنان .. روحه الآن موصولة بك عبر هذا البياض نزلت براحتيك فوق الثلج .. تبددت رغبتك بالقتل وعاودك الحزن .. أنت كاذب .. كاذب .. قلت لنفسك وأنت تتذكر (ف) لو كان لا يعنيك من هذه المرأة إلا ذلك السر الذي يغلفها وحدها دون أن تجذبك الأشياء القادمة من خارجها لما هزّأك الحزن إلى هذا الحد ،طيلة الوقت الذي عرفتها كانت تغريك حكايتها .. تصادق امرأة لا تعرف اسمها ، تكتشف أنك تحبها في الوقت الذي تعرف أنها ليست لك ... ليست لك ، قبضت حفنة ثلج ثم ذررتها في الهواء ... هكذا ؛ أنت لست لها .. أخطرت روحك . ما المحزن في هذا ؟ كذلك قاتلها طلب نسغاً من خارج روحها و هو يعلم مسبقا أن روحها تهيم خارج جسدها منذ وقت طويل .. الآن فقط تستطيع أن تكسر القشرة اليابسة التي تحفظ أجزاءك .. أم أنه الثلج .. فكرت بأم ثليج قالت لك نهارك قصير هل تهرق نبوءتها الآن و رأيتهم يتقدمون يعركون الثلج خلف آثارك بأحذية قاسية . تأملت في خطواتهم و رأيت نفسك تفارق هلع الموت وحيدا .. أشهرت سلاحك .. غادرت مكمنك و مضيت نحوهم تطلق النار واقفاً .